هونر كريم

أثر الدب

Telegram:@mbooks90

رواية

سطور

- أثر الدب

- تأليف: هونر كريم

- الطبعة الأولى ٢٠٢٥

- جميع حقوق الطبع والنسخ والترجمة محفوظة، حسب قوانين الملكية الفكرية للعام 1988، ولا يجوز نسخ أو طبع أو اجتزاء أو إعادة نشر أية معلومات أو صور من هذا الكتاب إلا بإذن خطي من الناشر.

ISBN: 978-9922-8986-4-3

- تنويه: إن الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبّر عن رأي كاتبها، أو محررها، ولا تعبّر بالضرورة عن رأي الناشر

سطور

دار سطور للنشر والتوزيع

بغداد- شارع المتنبي- مدخل جديد حسن باشا

07700492567 - 07711002790

Ema bal_a me@yahoo.com

SUMER

Printing, Publishing & distribution

- تصميم الغلاف: ماهر عدنان

- الإخراج الفني: آية نبيل

الربيع

الوادي

يحيط بي جبلان شاهقان يمتدان نحو أوج السماء، يخفيان عني زرقتها اللامتناهية، ولايتركان لي سوى امتداد مُتعرج من السحب تمر كنهر صامت في السماء يستكين في أعماقي جدول ماء رقراق يصدر خريراً عالياً في أثناء جريانه الصاخب والمنحدر من ينابيع سفح الجبل البعيد، حيث مازال الثلج يُغطي قمته، تكسوه أشجار السنونو والجنار والتين بين أطرافها، مستدقة بقاماتها الطويلة، تزورها العصافير وتغسلُ أوراقها المتساقطة وجهي الرمادي. كان ظلام الليل ينسلّ، تاركاً أولى خيوط الصباح تنسج شالها الذهبي وتلقيه على الكون. استكانت أصوات الجنادب والضفادع، وأذّنت الديكة معلنة بزوغ الشمس من خلف قمة الجبل، ومع ضوء الفجر الأول الشاحب، كانت النسمات الباردة تدغدغ أجفان البشر الراقدين فوق سطوح منازلهم الطينية المنتشرة بين ذراعيّ، وتوقظهم، فيدب الحراك ويعلو تغريد الطيور، وثغاء الماعز وخوار الأبقار، وهي تتوجه مُنقادة إلى السفوح المنتشرة تقتات من أعشابها ما يقع في طريقها. وفي الليل حينما يخلدُ البشر وحيواناتهم الأليفة إلى النوم، تبدأ الضواري بالظهور من جنب إلى آخر، ومن بين شقوق الصخور، يبدأ عواء الذئاب ونباح الكلاب ونقيق الضفادع ورفرفة أجنحة الحشرات، وخنخنة الخنازير وقباعها، وبين آونة وأخرى تظهر على السفح الممتد بعض المفترسات مثل الضبع والدب والنمر.

Telegram:@mbooks90

تلك الحيوانات المتلهفة إلى الحياة تسامر وجودي ليل نهار في حضني المتعرج، لا يعكر صفوي أي شيء غريب، كانت الحياة ساحرة، إلى أن اعتلى طرقي الترابية شيء غريب لم يألفه محيطي من قبل، آلة غريبة تيسر على الوقود، يدعونها السيارة، اخترقت سكون عالمي في إحدى الصباحات، وتوجهتْ

العيون الجاحظة والمشدوهة إلى ذلك الزائر الذي حطم سكون هذا الوادي المنعزل، قاصداً نهاية الوادي في الجانب الغربي، وحط هناك الرحال. خرج منها رجل أشقر ببدلة أخضر قاتِم وقبعة مائلة، قدم نفسه إلى آغا القرية، على أنه السير ريكسون، وهو مهندس مرسل من قبل القنصل البريطاني من أجل بِناء مخفر في هذا الوادي. يرافقُه رجلان هنديان كانا على ما يبدو من السرية العسكرية التي جاء منها.

استقبَلهم الآغا ميران بحرارة، بعد أن طرد رجالُه الأولادَ الذين يلتفون حول مركبته العجيبة، كان يعلم بقدومه، فقد وصله بريد من أربيل قبل أسبوع يطلبون منه مساعدتُه لتنفيذ مهمته التي قدم من أجلها، وتلبية ما يحتاج إليه. رحبَ بهم في ديوانه الطويل وقدم لهم ماعزاً مشوياً، لكن السيد الإنكليزي لم يستسغ طعمه. فتناول منه القليل.

بعد أن حددوا موقع البناء، نصب الإنكليزي خيمته، وأنزل الهنديان الحقائب والصناديق التي تحتوي العدة، في المكان الذي سيبنى عليه المخفر. كان السير قد حصلَ على التصميم من قشلة كركوك. وبعد أن انتهوا من إقامة المخيم، طلب من الآغا أن يمدّه برجال أكفاء من القرية، ليعملوا لديه في البناء مقابل أجر يومي.

كان الإنكليزي مشدوهاً بالمناظر الخلابة، يلتفت غالباً برأسه وهو في العمل نحو الأجمات المنتشرة على سفح الجبل، وتحدوه الرغبة في أن يسير على سفوح الجبل ويغوصُ في عوالمه المخفية، ويعبر قممه ليكشف ما خلفها من عوالم غير مرئية.

كان الإنكليزي يتجول في الوادي جيئة وذهاباً، وهو يحملقُ في المنظر الخلاب، يخرج مع الهنديين في أيام الجمعة حيث يستريح العمال ويسير طويلاً إلى أن تتعب قدماه متفحصاً هذا العالم المنزوي في جانب من الأرض يحمل في طياته الحلم الإنكليزي في أن يجد كنزاً لم تلمسه يد بشر. سمعَ عن الكهوف المنتشرة في الأرجاء، وعن القصص الخرافية التي تروى عنها، وعن الجان الذين يسكنون في أعماقها الطويلة التي لا تعرف لها نهاية.

ذات يوم طلبَ من الآغا أن يذهبوا في جولة استطلاع إلى الكهف الكبير الذي يقع في الطرف الآخر من الجبل. أحضر الأغا الخيول والرجال لمرافقة الإنكليزي، وصلوا عند حلول الظهر. إلى الكهف، دخلوه، وراحوا يحاولون اكتشاف ما في داخله، كان الإنكليزي يتلمس جدارنه وهو يأملُ أن يجد كنزاً. وحينما توغلوا بين جنباته ازدادت حلكة الظلام، وقعت أقدامهم على عظام لبشر وحيوانات. أشعلوا الفوانيس، وتوغلوا أكثر في أعماق الكهف. كانت الخفافيش تطير على جدران الكهف بكثرة وجزع، كلما تعمقوا أكثر، كانت رائحة الميثان تفوح في الأجواء، وعلى ما يبدو كانت رائحة براز الخفافيش. فجأة، انطفأت الفوانيس، مما يدل على قلة الأوكسجين. ساد الظلام، ولم يعودوا يتبينون طريقهم، انتابهم الخوف. وبغتة سمعوا صوت حيوانين غريبين. تسمر الجميع جزعاً من ذلك الصوت، وهم لا يعرفون ما الذي يحيط بهم في الظلام. دبّ الرعب في أوصالهم، وهم لا يدركون في أي مازق قد وضعوا أنفسهم. ولا يعرفون وجهة تفضي بهم إلى خارج الكهف. أحسوا أن نهايتهم قد حانت. حينها علا صراخ من أحد الرجال وهو يستنجد لأن الحيوانات قد قرضته. فزع الجميع وبدؤوا يحاولون الفرار بحثاً عن ثغرة تودي بهم إلى الخارج. أما الحيوان الذي لم يألفوه فقد بدأ يهاجمهم من شدة الهلع ويرتطم بهم بين حين وآخر.

صرخ أحدهم معلناً أنه وجدَ المخرج، وعليهم أن يتبعوا صوته. فلحق بهِ الجميع متتبعين بصيص النور الذي قادهم إلى الخارج. وعندما وصلوا إلى خارج الكهف، وجدوا أن ثلاثة منهم قد أصيبوا نتيجة هجوم الحيوانين، وأحدهم قد جرح بشدة والدم ينزف منه بغزارة. أما الإنكليزي فقد احتمى بصخرة حينما هُوجموا. تمزقت ملابس الآغا، وجرحت وجنته. اشتدّ غضبه، وطلب إلى رجالِه أن يُخرجوا ذلك الحيوان الذي طاردهم بأي ثمن.

حينما عادوا إلى الظلمة. أخذوا بنادقهم، وسمع الإنكليزي صوت طلقات نارية. فجأة، خرج دب صغير من الكهف إلى الخارج يلاحقه الرجال ويمسكون به. كان صوت الدب مدوّياً في الأرجاء. ذهل ريكسون، فهو لم يرَ أي دب في حياته. شعرَ بالخوف ولم يقترب منه، كان دباً بني اللون من النوع التي يوجد في أرجاء جبال زاغروس وطوروس. وبعد دقائق أخرجوا دباً نافقاً، كانوا قد قتلوه بالرصاص في الداخل، والدم مازال يسيل منه.

ربطوا الدب، وجروه إلى خارج الكهف. أما الدب النافق، فقد قطعَ الآغا رأسه وأخذه معه بعد أن رمى الجثة جانباً. فغر الرجل الاشقر شفتيه عن نصفِ أبتسامة، لقد كانت مغامرة ممتعة. أخبر الإنكليزي الآغا أنه قد حصل على دبه، وهو الدب النافق الذي قطع رأسه، أما الدب الآخر الصغير المربوط إلى الشجرة فهو له. لم ينازعه الآغا، خضع وسلمَ الدب الصغير إلى الإنكليزي.

في طريق العودة كان ريكسون يحملقُ في الدب، ويفكر أنه رغم عدم حصوله على الكنز الذي كان يأمل الحصول عليه، إلا أن هذا الدب لابأس به أيضاً، وفي مقدوره أن يرسله إلى بريطانيا هدية للملك، فيرفع بذلك من شأنه ومكانته عند

الملك.

عند وصولهم إلى المخيم، طلبَ ريكسون من الرجال أن يصنعوا قفصاً للدب ويقدموا إليه الطعام. ثم توجه إلى خيمته، أخرج ورقة من صندوقه، وكتبَ رسالة إلى القنصل البريطاني في كركوك يخبرُه أنه يريد ان يبعث هدية إلى الملك، ويطلب أن يجهزُوا له ما يلزم من أجل إرسال هذا الدب الصغير إلى لندن.

البيت

أطلُّ على أشجار التين والصفصاف، تحوط بي المنازل الأخرى من قرية (ماران). أتألف من ردهة وغرفة صغيرة إلى الجانب، أما المطبخ، فهو في داخل الردهة، سقفي من خشب وطين وقش، بناني سنكر الرجل الذي قتل في معركة رواندز تحت قصف الروس، وترك خلفه زوجة في غاية الجمال، وطفلاً صغير السن. منذ تلك الحادثة، والأرملة التي تسكنني، تلّملم أحزانها وهي تحملق في وليدها الذي يكبر يوماً بعد يوم أمام ناظريها، وجل اهتمامها، هو كيف ترعاهُ وتجعله رجلاً.

«خورشيد بك» الذي شجعَ «سنكر» ليذهب معه في قتاله ضد الكفار في رواندز، عاد يحمل جثته على الخيل، وضعها أمام «نيركز» الذي خنقتها العبرات، ولم تستطع أن تصرخُ في وجهِه أنه هو من دفعه إلى ذلك. وبعد فترة وجيزة من موت زوجها جاء خورشيد بك يطلب يدها، مبرراً ذلك، أنه يريد أن يربي الولد في كنفه، فلا يكون من دون ولي، ولاسيما أن والده كان من أعزِ أصدقائه المقربين. ولكن كان الشك يساور قلب نيركز في أن يكون له يد في مقتل زوجها في معركة رواندز، لأن خورشيد كان يحملق فيها ويحدق في مفاتنها فيما مضى قبل موت زوجها، لكنها لم تكن قادرة على إثبات ذلك، ففي الحرب تجري الأحداث بسرعة، وبسبب غزارة النيران، لا يعرف مصدرها، ولا كيف أصيب الشخص. ولكن، عندما طرقَ خورشيد بك الباب بعد أيام عدة من مروره بكثرة تحت نافذة تأكّدت شكوكها في أن خورشيد دفع زوجها إلى الموت من أجل أن يتزوجها هي.

كان صديقاً لسنكر، يزوره غالباً في المنزل، كان من أصدقائه الذين يثق بهم، إلا

أنه لم يكن يعرف أن خورشيد بك يطمح في زوجته في الحقيقة.

وحتى بعد مقتله، لم ينفك خورشيد بك يمر من أمام منزلها، يقف لوهلة، ويتطلع من خلال النافذة عسى «نيركز» تطل وترّحب به، وعندما علم أن نيركز تتحاشاه وتغض النظر عنه، اقتربَ من الباب وطرقه لعلّه يراها، همست نيركز من خلف الباب أنها لا تستطيع أن تفتح له الباب؛ لأنه لا يوجد رجل في المنزل. فاستشاطَ غضباً لرفضها، ونهرها، قائلاً:

- كيف تفتحين الباب لذلك الشاب الذي يدعى هلمت؟ هل يوجد رجل في المنزل حينها، والله إذا رأيت هلمت في منزلك مرة ثانية، سوف أحرق الكوخ بمن فيه.

فزعَت المرأة من كلامه، وأجفلت، لم تعرف كيف علم خورشيد بك بعلاقتها مع ذلك الشاب الذي كان يزورها بين حين وآخر وقد هامت حباً به. كان هلمت قد طلبَ يدها للزواج، ربما رجال خورشيد هم من أخبروه بما يدور بينهما. علمت أنه لن يدعهما في سلام إن استمر الأمر هكذا، وعليهما أن يتزوجا قبل أن يفضحهما أمام الملأ.

لم يهدأ لها بال قبل أن تنهي هذا الموضوع بسرعة، يجب أن تسوي الأمر. حينما قدم هلمت ودخل الكوخ، جلس أمام الموقد يحدق في نيركز وهي تصب له الشاي من السماور، حاول أن يعانقها كما يفعلُ في الليالي الماضية، إلا أنها أوقفته وقد امتقع وجهها. فأحس أن هناك خطباً ما! فسألها عما يخالجها. قصت عليه ما حدث ظهر اليوم، وقالت إن عليهما أن يتزوجا حالاً، وإلا فإن خورشيد بك لن يدعهما وشأنهما، فهو يريد الزواج منها عنوة، إن لم يستعجل ويتقدم إلى

خطبتها. زواجهما لن يكلف شيئاً، ولن يقام لهما عرس؛ لأنها أرملة هكذا تجري العادة يأخذونها إلى المنزل من دون عرس.

تنهد هلمت وقال:

- المشكلة ليست في الزواج والعرس، المشكلة أن عائلتي ودابيرة لم يقتنعا حتى الآن بهذا الزواج، وحجتهم أنك أرملة ولديك طفل من رجل آخر.

لم يستطع هلمت إخبارها أنها فأل سيئ أدى إلى مقتل زوجها. ولن يرغب أحد في أن يرتبط بها.

غضبت نيركز، ورمت الصينية والسماور على الأرض، مما أيقظ الطفل في الجانب الآخر من الكوخ، وقالت:

- كنت تعلم جيداً أن لدي طفلاً، فلماذا اقتربت مني وغازلتني إن لم تكن تنوي أن تتزوجني، أم وجدتني أرملة واستغللت ضعفي واقتربت مني من أجل إرضاء شهواتك؟

أمسك هلمت بذراعها في محاولة لتهدئتها:

- لقد وعدتك، وسوف أنفذ وعدي وأتزوجك، ولن أدع أي شخص يخرب حياتنا، لا عائلتي ولا جدتي، دعيني أجهزّ لنا مكاناً نسكن فيه، ليس من اللائق أن نعيش في بيت رجل آخر كان زوجاً لك، ماذا سيقول الناس عنا؟

خرج هلمت من الكوخ متجهم الوجه غاضباً، تمنى لو أنه يستطيع قتل خورشيد بك بيده. كان عليه أن يتدبر أمره بسرعة ويعلن زواجهما، ولا يدع عائلته تسيطر على قراره.

الجبل

ادعى جبل هلكورد، حينما تغلبني الشمس وتنهضُ غامرة الأفق بنورها، تتسلق سفحي ببطء. تنجلي أمامي كل مشاهد العالم عبر سفوح جبال أخوتي من سلسلة زاغروس، الذين مازالوا شامخين مع الأفق يتصدون لأصعب الظروف، يحتذي البشر بنا، ويتعلمون من صمودنا ويذكرونه في أشعارهم، ويشبهون بنا الرجال الذين يصمدون أمام الصعاب.

Telegram:@mbooks90

رغم الزلازل والانهيارات الثلجية والتعرية منذ آلاف السنين مازلت شامخاً، أشرف على الوادي السحيق والسهوب المُمتدة أمامي، ومن البعيد أرى شقيقي جبل «شيخادار» يداعبه ضياء الشمس الذي يتسلل عبر قممي ويجتاز الثلاثة آلاف وستمائة متر، ليرسل شعاعه على المرابع المنتشرة والوديان الخضراء تحت سفحي، في الأسفل عند أقدامي، تقبع قرية صغيرة مُنعزلة عن باقي الأودية، فالجبال الممّتدة أمامي تحجب عنها رؤية العالم الآخر، ويحتمون تحت ذراعيّ.

يكسو سفحي رداء أخضر من أشجار البلوط المتناثرة، كأنها في خصام، وأشجار الزقم المتمايلة التي تنمو ببطء، ترويها الأمطار التي تغسل وجهي، أعتمر قبعة ثلجيه، تدوم لوقت طويل من العام، وتهبُ الرياح الباردة التي تلسع وجهي بغضب، أصدها، فتلقي بتعاويذها الغاضبة التي تجمّد أوصالي، لكني أقهقه ساخراً، وأحمي قرية (ماران) التي تنام في أحضاني مطمئنة، أدفع عنها الأعاصير الهوجاء في الشتاء، أما في الربيع فأترك النسيم الدافئ يداعبها فتذوب الثلوج، وتنحسر قبعتي، التي تتسرب خيوطها في شرايين الينابيع المتدفقة، تبرز الصخور، ويظهر سفحي من جديد مكللاً بنور الشمس الأخاذ. عندها يخرج

الناس من سباتهم الشتوي الطويل ويتوزعون في الربوع من أجلِ جمع الثمار التي أينعت الجبال من جوز ولوز وبلوط والقرنفل.

تلك المخلوقات التي رقدت تحت الشقوق، وفي الجحور فترة طويلة بدأت تخرجُ إلى الهواء الطلق. تتقافز في أرجاء السفح، الأرانب والغزلان والماعز، وتصدح في السماء العصافير التي تغازل الربيع، وتطيرُ من غصن إلى آخر. فتتماوج ألحانها مع رقرقة الجداول التي تسرح في ربوعي وتندفع من باطِن ينابيعي فتروي السهول التي تمتدّ أمامي.

تسكن في الكهوف المنتشرة في جوفي، العديد من الحيوانات المتوحشة مثل الدب والنمر والضبع. قبل يوم جاءت مجموعة من الرجال برفقة رجل أشقر غريب عن أرضي، دخلوا إلى الكهف حيث كانت الدببة مستلقية تنتظر عودة الأم من الأجمّات حاملة الطعام. كاد الزائرون أن يموتوا في الداخل، قتلوا دباً، وأخذوا الآخر معهم. وعندما رجعت الأم، ورأت الأب مقطوع الرأس وصغيرها ليس في الكهف، استشاطَت غضباً ونزلت هائجة تبحث عن صغيرها.

وغير بعيد عن ذلك الكهف، خرجَ من أحد المنازل رجل كهل يدعى ميرزا كعادته قبل طلوع الشمس يحمل عصاه ويتسلق السفح نحو بساتينه الواقعة في جانب السفح، حيث زرعَ فيها التين والجوز ووضع خلايا النحل تحت الأشجار، كان في الثمانينيات من العمر، إلا أنه كان يمتلك عزيمة الشباب وهمته، وهذا ما جعله يستمر في صعود السفح، ولم تثنِه صعاب الطريق الوعر عن ذلك. ولكن في ذلكِ الصباح سمع خشخشة تصدر من بين الأشجار والأجمات، كان الصوت يقترب وتزداد وتيرته. توقف في مكانه، كان وحده في الظلمة، وكانت الشمس تلقي بنورها الخجول على السفح، حينما برزَ أمامه دب شرس هائج تتوعد أنيابه

بالانتقام من البشر، وثب على ميرزا بكل ثقله، وألقى به أرضاً، ولم يترك له مجالاً للإفلات. لم يكن أمام ميرزا سوى أن يدافع عن نفسه، ويحاول الإفلات من براثن الدب، إلى أن خارت قواه، وهمّد، فراح الدب ينهشه ويقطع أوصاله، ومن ثم يفرّ بفعلته بعيداً.

القرية

أسموني قرية (ماران)، لا يتعدى عدد منازلي خمسة وعشرون منزلاً، أتوضّع على منحدر سفح جبل (هلكورد)، المنازل تعانق سفح الجبل، وتنتهي عند حافته حيث الجدول، تصطف المنازل بتدرج، أحدها يعلو على الآخر، مُكملة بعضها بعضاً، لتبدو للناظر كسلم مبني بشكل متوانٍ، كانت سطوح المنازل التي تقع في الأسفل ممراً إلى المنزل الذي يعلوه. ذلك العناق الحميم جعل أهل القرية كلهم، كياناً واحداً لا يتجزأ، يظلون في تواصل دائم فيما بينهم، يتحاورون ويقصون حكاياتهم الطويلة التي يستنبطونها من أساطيرهم القديمة التي توارثوها، يسردونها واحدة تلو الأخرى تحت وهج الفانوس، إلى جوار المدفأة في الشتاء. يحتشدون أسراباً، ويندّسون في أحد المنازل، يدّخنون الغليون فتمتلئ الأجواء بدخان صدروهم المطبقة، يخرجون من صدورهم الحكايات الغابرة، ويصدقونها بكل سذاجتهم. فهم لا يعرفون من العالم سوى مقدار امتداد أبصارهم، ولا يعرفون ما الذي يقبع خلف تلك الجبال التي تحوط بهم، وكيف تدور الحياة هناك. يخرجون فجراً، يتسلقون الجبل بحثاً عن طريدة أو طير، يحرثون الأرض التي تجاورهم. يهتمون ببساتينهم التي غرسوا فيها أشجار الرمان والجوز والتي تدرّ عليهم القليل من المال من الباعة المتجولين الذين يأتون صيفاً لشراء منتوجاتهم من شراب الرمان المركّز والتين المجفف وسلال التبغ وينحدرون إلى المدن لبيعها. أما ما يحصدونه من القمح فهو لا يكاد يكفيهم في فصل الشتاء التي يمتدّ كأطول فصول السنة في هذه البقعة المنعزلة عن العالم.

الرعاة يسوقون مواشيهم ويتسلقون صخور الجبال الصلدة، يقفزون معها من أجمة إلى أخرى ينزعون ما ينبت تحتها من الأعشاب المخفية. أما في وقت

العصر، فيجتمع كبار السن تحت ظل شجرة التوت الكبيرة التي تجاور الجدول المتعرج. يغرقون في الصمت، ويحملقون في أغصان الأشجار ويستمعون إلى العصافير المغردة، ينتظرون أن يمطرهم الرب بمعجزة، ويمرُ في ديارهم مسافر أو عابر سبيل قادته المنعطفات إلى هذه البُقعة المنزوية ليستفسروا منه عن العالم الذي جاء منه. ينزعون من رأسه ما يحشوه من القصص والأخبار عمّا يدور خلف الجبال. أما في المساء فيجتمعون ويقصون فيما بينهم ما دار في ذلك اليوم، ثم يفرشون على الأرض الألعاب التي يصنعونها من الدامة والدومبلة. وفي الليل قبل أن يندسوا داخل أسرتهم، يهدهدون لأطفالهم لكي يناموا مع دخول الدجاج إلى القن، ليستكملوا مع زوجاتهم عملهم الليلي الدائب.

هكذا كان تسير الحياة، بُنيتْ منذ قرابة أكثر من قرن ولم تحدث أي حادثة غريبة هنا، سوى واقعتين كانتا مثار اهتمام أهل الجبل كلهم، فالحادثة الأخيرة التي جرّت أجفلت السكان، الذين تساءلوا: كيف بلغ ذلك الكائن الغريب حدود القرية لينفذ تلك الجريمة الشنعاء.

ذلك الصباح كان عادياً كباقي الصباحات التي تزور أجفان أهالي القرية النائمين، لكنهم اليوم، استيقظواعلى خبر تقشعر له الأبدان! فقد حدث شيء غريب لم تعرفه القرية من قبل، وهذا الخبر سيؤدي إلى انقلاب حياة القرية رأساً على عقب، وتحديداً، صاحب البستان الذي كان يدعى هلمت. سيُغير حياته إلى الأبد.

كان راقداً على فراشه المصنوع من الصوف بين النوم واليقظة، حينما تناهى إلى سمعه صوت الراعي دلير، ليقطع عليه غفوته وهو يستمتع بأشعة الشمس تسري فوق جسده، لعنه في سره، لم يرد النهوض، ولكنه لم يكن يدري أن هذا

الصباح سيكون له آخر عهد له بذلك السرير الأملس. فرك عينيه، وأمال رأسه صوب أشجار الصنوبر إلى حيث يأتي الصوت. (هلمت .. هلمت) كان اسمه يطرقُ سمعه، هزَّ رأسه مجفلاً من رقدته.

(هلمت ... إلحق) لم يكن يدري لماذا يناديه بهذا الجزع، لم يعلم أن خطباً ما قد حدث. أمراً جليلاً يدعوه إلى أن يردد اسمه!

(هلمت.. بابيرة) عندما سمعَ اسم جده، رمى اللِحاف عن جسده، وتخبط على فراشه، ونهض. وبخطوتين وصل إلى حافة البيت المصنوعة من الطين والقش، وأمال جسده نحو الأسفل، كان دلير يستنشق الهواء بصعوبة، والرعب يرتسم على وجهه الداكن الجاف. صرخ بأنفاس متقطعة:

- هلمت... حيوان ما، هاجم الجد في الطريق إلى البستان.

رفع هلمت رأسه نحو الجبل، رفعَه عالياً بمقدار طول الجبل الشامخ الذي يعتلي رأسه، ازدادت دقات قلبه، وبخطوتين قصيرتين وصل إلى حافة سطح الكوخ، كان ثقل خطواته يهزُّ السطح، جفّلت الجدة شاه كول، وهي تستمع إلى تلك الخطوات التي هزّت البيت، أمالت برأسها نحو السقف وتسمّرت عيناها الصغيرتان في الأعلى وهي تردد (ماذا حدث؟)، كأن غولاً يسير فوق السطح، أدركت أن أمراً جسيماً يحدث.

قفّز هلمت فوق السلم فترنح السلم ووقع على الأرض، لم يبال، وهرّعَ حافي القدمين صوب أشجار البلوط متسلقاً الجبل، تجرحُ قدميه الحواف الحادة للصخور، ويلاحقه دلير بحذر.

تغلّل صوت دلير في الأرجاء ذلك الصباح، وأيقظَ من في القرية من رقادِهم، ومنهم من كان يغمسُ الخبز في اللبن ليبدأ الفطور، ومنهم من نهض من النوم لتوه ليسرح بماعزه إلى المرعى، أما العجائز والشيوخ، فقد أفزعهم الصراخ وتجهمت وجوههم المتغضنة، وراحوا ينظرون إلى أعلى السفح ليعلموا ما الأمر. وأخيراً، خرجَ الجميع من أكواخهم، والحيرة ترتسم على وجوههم، تجمعوا بين الممّرات يتجادلون فيما بينهم ويذكرون (ميرزا)، ويتساءلون عن الخطب؟ ومن ثم لحقوا بدلير الذي سبق هلمت إلى البستان.

كان هلمت يقفز فوق الصخور المدببة، وتنغرس قدماه في الماء وفي الطين أحياناً من دون أن يبالي، وهو يسارعُ الخطى نحو الجبل. مرَّ من تحت أشجار الجوز، لم يلاحظ صديقه كاردو وهو في أعلى شجرة الجوز يضربُ الأغصان لتتساقط ثمار الجوز على الأرض، وفي الأسفل تجمع خجاو الثمار وقد تلّونت يداها بالسواد. شعّرت نازادر أن شخصاً قد مرق من أمامها كالسهم، التفتَ فرأت أخاها، نادته بصوتٍ مرتفع، ولكن هلمت لم يعرها اهتماماً، وواصل الجري يتبعه دلير، طلبت خجاو من زوجها أن ينزل عن الشجرة ويقتفي أثر أخيها.

كان الجد مازال يسبح في دمه، وقد صعدت روحه إلى بارئها. حملُه هلمت على الفور في أحضانه وتفرس في عينيه الصامتتين، كان جامداً كالصخر، لقد مزّق الدب جسده وكسر عظامه.

وصلَ رجال القرية، والتفوا حول الجثة مشدوهين، فقد أذهلهم المشهد الغريب الذي لم يألفوه سابقاً. تنهدوا ووقفوا عاجزين عن معرفة الفاعل. من يقتل رجلاً مسناً بهذه الطريقة الشنيعة. من لديه عداوة مع هذا العجوز؟ هل في قريتهم شخص ما يملك هذه الجسارة ليمزق رجلاً إلى أشلاء؟ علموا أن هلمت لن يسكت

عن هذا الأمر، كان مايزال مشدوهاً، لم يستوعب ما يراه! قدماه المرتجفتان لا تقويان على حمله وهو يجمع أشلاء جده.

حتى الشيوخ وقفوا يرقبون المشهد لا يفقهون ما يدور حولهم، وعندما وصل كاردو المعروف بحدسه ومعرفته الواسعة، تفوّه بكلمة واحدة جعلت الجميع يلتفتون إليه بعد أن كسر الصمت:

- الدب.

أصاب الجميع الصمم، اتسعَت أحداقهم، وهم يسمعون تلك الكلمة، لم ينطق كاردو تلك الكلمة مصادفة، أو من دون سابق إدراك، فهو يعلم ما يقوله:

- لقد رأيته عندما كنتُ في أعلى الشجرة، يتوجه بعيداً نحو الضفة الغربية.

استشاط هلمت غضباً، ثم تنفس الصعداء، كأنه مُقبل على قول مهم، والغضب يستبدّ به، ويجعل الشرر يتطاير من عينيه، فقال:

- لست حفيد هذا الرجل، ما لم أنتقم له، ولن أنزل من هذا الجبل مالم أقتل الدب أو يقتلني. سأدبغ جلده، وأجعلهُ سجادة أسير عليها، أو سأحرّم النوم طوال حياتي.

تلِك الكلمات، أخرّست الجميع، وانشدّت أبصارهم إليه، ليستوعبوا الكلام الذي تفوّه به في تلك اللحظة، كلام ينذر بالمصاعب، ويتوعد بالانتقام من ذلك الدب.

شجرة التوت الكبيرة

كعنق طويل ومتفرع، مال جذعي نحو القرية، لأظلل بأغصاني الوارفة، الفناء الذي يتوسط القرية. تمتد جذوري مغروزة في أعماق الجدول الذي يجري في الأسفل ويختلط خريره بزقزقة العصافير التي تزور أغصاني، وتتساقط بين فينة وأخرى ثماري. لم يفكر أحد من سكان القرية في أن ينتزع غصناً مني، ويغرسه في فناء داره، فهم يظنون أنني أجلب الشؤم! وربما صح قولهم، فالقرية التي تظللها أغصاني، ويجلس تحتي العجائز والشباب ليجعلوني ميدانا لأحاديثهم وألعابهم مثل النرد والسيبردان، فربما حملت لهم النحس! فما إن أشرقت الشمس، حتى تجّمع سكان القرية من الرجال والنساء، وقد تملّكهم الجزع والخوف، وهم يرددون نبأ مقتل أحد أهالي القرية ممّزقاً بمخالب الدب. أليس هذا نحساً جلبته أنا إلى قريتي. لماذا ينزل هذا الدب إلى قريتي أنا، ويقتل أحد أفرادها، وهو ميرزا الذي كان يجلس تحت أغصاني، ويتحدث إلى أهل القرية، ويشرح لهم مافعله ببستانه وكيف يهتم بأشجاره، ويغرز يده في التربة ويصب عرقه على البذور التي تنبت فيما بعد في أرضه بحبور. ها هو الآن قد أسكته الدب.

لم أرَ في حياتي أهل قريتي يعيشون هذا الصخب واللغط، لقد حدث أمر لم يحدث من قبل، دب يقتل أحد أفراد القرية! وقع الخبر كالصاعقة عليهم، فتراهم يدخلون بيتاً ويخرجون من آخر، يبثون الخبر في أرجاء القرية، هكذا تناقل الحدث بين وجوه الناس. منهم من تعثر هلعاً ووقع في مكانه وهو يهرع، ومنهم من سقط في الطين والوحل. وبدأ الخبر يتضخم، ويرتدي طابع الخوف والجزع، كأن حرباً ثُشنّ على القرية، كان الوجوم يسيطر على الجميع، وكأنهم ينتظرون قافلة أخرى من الإنكليز، أو أن العثمانيين سيعودون بحملة أخرى من آلاف

الجنود المدججين الذين يهزّون أركان الجبل ليغزوهم مرة أخرى.

نزلت ويلات عديدة على هذه البقعة من العالم، ومنها غزو العثمانيين الذين نهبوا القرية، وقتلوا ابن ميرزا، وهذه الواقعة لا تقل رعباً عن تلك الحادثة القديمة، فالوجوم المسيطر على الوجوه، يشبه ذلك الجزع الذي تملكهم حينما هزّمهم العثمانيين، ودخلوا القرية وسلبوا ما استطاعوا وقضوا على ما تبقى من مرابع القرية. هكذا بتلك التعابير استقبل أهل قريتي ذلك النبأ! لقد اعتادوا على الأخبار السيئة التي تجلب لهم الويلات. أما هذا الخبر الجديد الذي يحمل في طياته تحدي ومواجهة حيوان شرس، لم يتوقعوا أن يُباغتهم الدب. الذي بدأ ينشر الرعب في القرية، وليس بعيد أن يقتل شخصاً آخر عما قريب، انتشر الهلع فيما بينهم. وكما لم يستطيع أحد أن يقف في وجه أولئك الغزاة، فإن أهل القرية في هذا الوقت يبحثون عمّن ينقذهم من شره. إنما، ما زاد في حيرتهم، وقلقهم، هو التحدي الذي أعلنه هلمت أمام الملأ. وكدخان نار نوروز التي تضيء الجبال، لتنشر الخبر للمناطق الأخرى، انتشر القول كالنار في الهشيم من منطقة إلى أخرى ومن وادٍ إلى آخر ومن قرية إلى أخرى، أن هلمت سيقوم بقتل الدب، ولن ينزل من الجبل مالم يسلخ جلده.

طلب هلمت إلى أهل قريته ألا يسعى أحد منهم إلى قتل الدب، فهو الوحيد الذي سينتقم لجده، إلا أن سكان القرية أخذوا جانب الحيطة والحذر من الدب، وقرروا أنهم لن يتركوه إذا اقترب من القرية مرة أخرى. وأوصوا الرعاة والناس ألا يبتعدوا هذه الأيام عن أطراف القرية حتى يعلموا ما يمكن أن يفعل هلمت بهذا الدب.

سادَ الترقب والتوجس من المجهول، وبان الفزع على الوجوه الغارقة في

الرعب تحت أغصاني الوارفة، لا يعرفون مصير هلمت، وما عليهم أن يفعلوا. كانوا يثقون في هلمت الجريء الشجاع الذي قسم بتنفيذ قراره، وراحت الأفواه تصدح بما تعهد به:

- هلمت قرر أنه لن ينزل من الجبل، مالم يقتل الدب ويمزق أشلاءه بيده.

- هلمت لن يعود من الجبل، ولن يظهر لأحد مالم يعد برأس الدب.

- لن يدخل هلمت القرية مرة ثانية، وسيلازم الجبل إلى أن يقتل الوحش في الجبل.

- هلمت بصق في التربة ونكرَ أصله إن لم يقتل الدب الكبير.

- هلمت سيذهب إلى نهاية العالم من أجل قتل الدب. ولن يعود إلا برأسه.

الموقد

عكس كل الأشياء، عندما ينتهي الشتاء، ويأتي الربيع يضعونني في خانة النسيان، ويكّف الناس عن رمي الأعواد في جوفي، تلاشى البرد القارس الذي كان يزحف من خلالِ النوافذ ومن بين شقوق الجدران إلى داخل المنزل، وتوقف صوت صفير الريح الذي يهزُّ أركان الكوخ بقوة، وارتطام النوافذ التي تكاد أن تتحطم من شدة الهلع، أما الباب الصغير فكاد في بعضِ الليالي أن ينخلع من جراء العاصفة الهوجاء التي تهزّه بعنف. كم ابتلعت من الحطب من أجل تدفئة الكوخ الصغير! إلا أن صقيع الجبل القارس الذي يهب بجنون على القرية، كان يحدّ من محاولتي المستميتة في تدفئة الجو، كانت الجدة (شاه كول) التي تدعى دابيرة تحب الحر وتكره الشتاء، وتلازمني ليل نهار، تطوق أطرافي من شدّة البرد ولا تبرح جواري، تلتفت إلي ولا تحيد بصرها عني وتحرك فمها بتأنٍ وهي تقص لمن في المنزل حكاياتها التي مازالت تلازم مخيلتها وتسردها لهلمت وبقية العائلة الذين كانوا يزورونها، ويطول الحديث ويزداد التشويق إلى أن يغزو النوم أجفان الأطفال.

في تلك الليلة التي أوقدّت فيها النار في أحضاني، أحسّست أن ناراً تستعر في داخلها، بكت بحرقة زوجها الذي قتله الدب، لم تكن تظن أن رجلاً بقامة جبل يهابه أهل القرية كلهم يموت بهذه الطريقة الشنيعة. بعد أن دفنوه ظهر ذلك اليوم في المقبرة الواقعة على سفح الجبل، كان يقلقها مصير حفيدها العزيز هلمت، والعهد التي ألزم نفسه بها أمام الناس، من أنه لن ينزل من الجبل ما لم ينتقم من الدب ويحرم عليه النوم في الفراش الدافئ. ياله من ولد شقي وطائش كيف له أن يتفوه بتلك الكلمات! كيف سيواجه هذا الدب الشرس. ماذا لو قتله، فهو غير

قادر على مجاراته. إنه حفيدها الوحيد كيف لها أن تدعه طعماً للدب، بسبب جده الذي كان في أيامه الأخيرة وشبح الموت يرافقه كل يوم. ميرزا عاش حياته كما تمنى، أما هو فمازال شاباً في مقتبل العمر، يجب ألا يضحي بنفسه من أجل أن ينتقم من حيوان متوحش. كيف له أن يعيش لياليه بين الصخور الصلبة ويفترش الأحجار وينام على الجلمود.

كانت العجوز تحاول أن تردع الولد عن قراره، وتمنعه من تلك المخاطرة:

- إنك مثل جدك المرحوم عنيد، كان لا يتراجع عن كلامه، وينفذه مهما كان الثمن، ومثل والدك الذي أصرّ على تنفيذ وعده الذي أودى بحياته.

أحسّ هلمت أنه قد أوقع نفسه في ورطة لا مفر منها، ابتلعَ ريقه وعرف مصيره الذي توارثه عن جده وأنه لا يستطيع أن يتراجع عنه. لأن النكوص بالعهد سيمس شرفه، كان يحملق في النار التي أوقدتها الجدة وعيناه لا تفارقانها، يفكر بما جرى لجده ميرزا ووالده. كيف له أن يتراجع عن العهد الذي قطعه على نفسه. لن يطول الأمر سيجد الدب عاجلاً أم آجلاً وسيقتله ويسلخ جلده ويجعله سجادة تحت قدمه في الكوخ، ليشهد أهل القرية بشجاعتة وبسالته، وبأنه رجل صاحب كلمة. التفّت إلى الجدة، وهمس قائلاً:

- لا تخافي، يا (دابيرة)، لن يطول الأمر، سأعثر عليه بسرعة، وأقضي عليه.

نهرته العجوز، وذكرته أنه لن يستطيع التغلب على الوحش، وأنه سوف يهلك لا محالة:

- إما أن يقتلك الدب، وإما أن تهلك في الجبال والمفاوز.

حملت قطعة خشب ورمتها بغضب في النار، بدأ الظلام يتسرب إلى الغرفة، حدّقت في وجه هلمت المتجهم، وعرفت في قرارة نفسها أنها لا تستطيع أن تردّعه عن قراره وتمنعه من الرحيل.

حملق هلمت في الخارج، وكأنه تذكر شيئاً مهماً، واستطرد:

- سوف أذهب وأعود حالاً. جهزّوا لي بندقيتي عندما أعود.

المرآة

اشتراني عطار جوال من أحد المحال في البلدة، وحملني على عربته الصغيرة التي يجرها بغل، وأخذني مع أغراضه الأخرى ليتجول بنا بين قرية وأخرى يبيع حاجياته، كان يحمل القليل من الأقمشة وأدوات الزينة، والملابس التي تخص النساء. حينها، قبل أن ندخل إلى أول قرية، شاهدتني فتاة جميلة تسير راجعة من الجدول وتحمل دلواً من الماء، أبهرتها صورتها وهي ترى نفسها من خلالي، وقع الدلو عن كتفها غير مصدقة الجمال الذي تمتلكه. أخذتني من العطار، أخبرته أنها سوف تشتريني بأي ثمن، فهي لم ترَ مرآة بهذه الوضوح قط، ولها هذا الإطار المزين بأجمل الزخارف والفسيفساء الملونة. وأصبحت ملكاً لها في أول رحلة لي بين القرى.

تلك الصبية التي كانت تدعى قُمرية كبرت، وتزوجت فيما بعد ولم يحالفها الحظ في زواجها، كانت تندب حظها، وتلازمني، تقف أمامي طوال الليل بشعرها الأشعث، تحمل الكثير من الحزن في داخلها، لم أجد امرأة سيئة الحظ مثلها، فقد قتل زوجها بعد سنة من زواجها. كانت تجلس أمامي، وتجهش بالبكاء بعد أن باتت وحيدة، أرملة في مقتبل شبابها، كان الحزن المكنون في داخلها يكفي العالم كله. لم ترضَ بالتقاليد ورفضت الزواج من شقيق زوجها الذي يصغرها بخمسة أعوام، كما كانت العادة أن تتزوج المرأة من شقيق المتوفى، فهو أصغر من أن يعرف ماهو الزواج.

انزّوت في منزلها، لم ترغب في الاقتراب من أحد، واستكانت إلى الصمت، كانت تندبُ حظها فلا أحد يرغب بالزواج منها ولاسيما أن لديها طفلاً من زوجها

المتوفى، وبسبب جمالها الأخاذ خافت بعض النساء على رجالهن أن يقتربوا منها، فاختلقن عنها قصصاً غريبة، وأشعنَ أنها امرأة مشؤومة، صديقة الشيطان وسيقتل كل من يتزوج منها، وبذلك شوّهنَ سمعتها، وأبعدنَ الرجال. وخاف الشبان من الاقتراب منها، رغم جمالها الأخاذ الذي لم يخبو بريقه، لم أكن أرتوي من جمالها وهي تجلس أمامي و تحدق فيَ.

رغم ذلك تقدم لطلب يدها رجلان فيما بعد. أحدهما رجل عجوز يدعى عزة روش، كان عاجزاً لا يقوى على مغادرة فراشه، يبصق البلغم في قمع خاص إلى جوار فراشه، فقد زوجته، وماتت ابنته الوحيدة، ولم يعد هناك من يعنى به، فتقدم ولده يطلب منها أن تتزوج والده الطاعن في السن لترعاه وتبقى إلى جواره تغسله، وتنظف بيته، وتعد لها شوربة «القوراو» التي يحبها، وسيتكفلون برعايتها كأم لهم حتى بعد ممات والدهم. يومها استشاطت قُمرية غضباً وأجهشت في البكاء بعد أن أوصدت الباب بقوة في وجه الرجل.

الرجل الثاني الذي تقدم إليها، ولم يخف من الموت، هو خورشيد بك، الرجل الذي تزوج ثلاث نساء وأراد أن يطبق الشرع، كان معروفاً بجبروته وظلمه، كان يؤذي أهالي القرية. لم يستطع أحد عصيان أوامره سوى امرأة واحدة، هي قُمرية، فاستشاط خورشيد بك غضباً، وتوّعدها أنه لن يتركها ما لم يتزوجها ولو كانت آخر لحظة في حياته.

الشاب الوحيد الذي وقع في شراك عشقها ولم يبال بأقاويل العجائز هو هلمت، يوم ذهب إلى البستان مع أخته خجاو رآها مع باقي الفتيات وهن يجمعن الرمان، ويخرجن حباته ومن ثم يضعنها في قدر كبير يغلي ليصنعن منها دبس الرمان. شدّه بريق عينيها العسليتين، وبياض وجهها المتورد، وجسدها المتناسق،

لم ير امرأة أجمل منها في حياته المحصورة كلها بين شقي هذين الجبلين، كانت بحق أجمل نساء الوادي كما يدعون. صرعه الحب واحتلّ مكاناً في قلبه ، ودفعه إلى الاقتراب منها، والتحدث إليها، أدرك من حولهما أن أمراً ما حدث بين قلبي هذين الشخصين. يومها عادت قُمرية مفعمة بالحبور وهي تجلس أمام المرآة تتفرس في جمالها المنزوي خلف وجهها الحزين.

ازدادت وتيرة الحب، إلى أن تلامست الأيدي، وتبادلا القُبل خلف أشجار الرمان، وازداد الحب اشتعالاً في قلبيهما. كانت قُمرية رغم ملابسها السوداء التي ترتديها، لا تنفك تلازمني وهي تزّين نفسها قبل أن تخرج إلى بساتين الرمان موعدهما.

تلك العلاقة تعمّقت، وبدأ هلمت يزورها في الليل ويمارسان الحب في الخفاء.

وعدها هلمت بالزواج، رغم الحكايات التي تناقلتها ألسنة الناس، ورغم معرفته برفض أهله وجدته بالذات، إلا أنه كان مصراً على ذلك، كان ينتظر الصيف، ليبيع مخزونه من العسل ويعد ماله لشراء أثاث العرس، ويعلن زواجهما أمام الملأ. ولكن تلك الحادثة، قلبت الأمور رأساً على عقب، واستحال ذلك الحلم مستحيلاً، أضف إلى ذلك أن خلايا النحل التي كان يأمل أن يجني العسل منها، قد خربها الدب.

رأيت قُمرية يلّفها الحزن، وهي تجلس أمامي، وقد اغرورقت الدموع في عينيها، تندبُ حظها العاثر، فبعد أن وجدت الشاب الذي أحبته، وتواعدا على الزواج، ها هو القدر يبعده، ويضعه في مواجهة دب متوحش، قد يودي بحياته كما أودى القصف الروسي في رواندز بحياة زوجها.

وزاد من حزنها عندما علمت أن هلمت لن ينزل من الجبل مالم يقتل الدب،

فكيف ستمر لياليها بعيداً عن حبيبها.

سمعت طرقاً على النافذة، كان هلمت يطلب إليها الدخول. ورغم خصامهما ليلة البارحة كانت قد ندّمت وحزنت لأنها نهرّت هلمت. دخل الكوخ وجلس، وقبل أن يقول شيئاً، بادرته بالقول:

- ما الذي فعلته؟ وكيف اتخذت هذا القرار؟ ألم تفكر بي؟ ألم يكن حبي في بالك؟ إنني أخاف عليك كثيراً. إن لم تستطع مجابهة الدب وقضى عليك. ماذا أفعل حين ذلك. سأقتل نفسي. نعم بعد أن مات سنكر، تموت أنت أيضاً، سأنهي حياتي.

حاول هلمت أن يهدّئها وهو يجّرها إلى حضنه:

- لا تخافي، سوف أقضي عليه. لو كان بابيرة يحمل البندقية معه لكان غلبه. سأقتله بالبندقية ولن أواجهه بالسيف. لا تخافي.

فكّرت ملياً وقالت:

- ولكن ماذا لو لم تجده؟ ماذا لو طال بحثك ولم تجده؟ عندها كيف ستفي بوعدِك أمام الناس، وأنت شاب عنيد؟

حضنها بقوة، وقال:

لا تخافي، لن يطول الأمر، أعدك... سأجده عما قريب.

- سأكون في خطر، لن يتركني خورشيد بك وشأني، لا تنسَ أنه يحاول أن يتزوجني.

- لن يطول الأمر.. ولن أدعه يقترب منك.

انزويا تحت الفراش، وانغمسا في عناق شديد؛ عناق ربما هو الأخير الذي يحدث أمامي.

البندقية

ادعى سمينوف، عملي هو القتل، قتلت عدداً من الجنود عندما كنت في يد الجيش العثماني، من الذين يسمونهم الأعداء، وما زلت أتذكر وجوه أعدائهم الذين لا أعرفهم، وكيف كانوا يضغطون على زنادي لتخرج رصاصة تخترق صدر الرجل الذي يكنون له الشر. صنعني البشر لأقتل بشراً آخرين، وما أنا سوى طوع أمرهم.

تناقلتني الأيدي من جندي إلى آخر؛ من قروي إلى متمرد؛ من حارس إلى لص، قتلت من البشر مالا يحصى، والناس كلها تهابني. عاصرت الجبهات، ورأيت الدماء تنزف والجرحى مرميين بين الثكنات، شاهدت دخان الحروب يغطي الأرض، والمدافع المُتحركة تقذف حممها، والخيول تحمل الفرسان ليقتلوا الجنود. بعد أن توقفت الحرب، تلقفتني أيدي اللصوص، ودخلت معهم إلى منازل الآغا وسرقناهم، ليرد علينا رجال الآغا ويردون اللص برصاصة، ثم حملني الآغا مع الجندرمة، وقتلنا معاً قاطعي الطرق. حملني الجنود والضباط على أكتافهم. لم أتوان في يوم من الأيام عن تنفيذ أوامرهم. عبرت بحاراً على متن السفن العثمانية ووضعت فوق ظهور البغال وهي تنقل العتاد فوق الجبال، وأكثر ما كان يؤلمني وأكرهه، هو حينما يرغمونني على قتل أسرى لاحول لهم ولا قوة، وهم معصوبو الأعين.

آخر من حملني على كتفه كان ضابطاً عثمانياً. حينما انسحبوا من العراق. كان يمرون في كل بلدة وقرية ويأخذون ماتطاله أيديهم، ويخربون ما يقع تحت أنظارهم، وحاولوا أخذ ما أمكنهم من رجال القرى من أجل خدمتهم والقتال إلى

جانبهم في الأماكن الأخرى.

عندما اقتربوا من قرية (ماران)، كانت قافلة كبيرة من الجنود، يسيرون بخطوات سريعة. كان الإنكليز قد احتلوا نصف العراق، وبدا أن دولتهم تنهار شيئاً فشيئاً، عندما وصلوا إلى هذه البقعة دخلوا المنازل، ونهبوا ما في مقدورهم، وأحرقوا المزروعات وأخذوا محصول تلك السنة من الحنطة والتمر.

شاهدوا صبياً فوق شجرة الجوز يهزّ الأغصان، فتتساقط ثمارها، لم يكن هناك أحد إلى مقربة منه، طلب إليه الضابط أن ينزل عن الشجرة، إلا أنه لم يذعن إلى قراره، كان الجنود جميعهم ينظرون إلى ضابطهم والصبي الصغير لاينصت إليه. لربما خاف الصبي وفضل البقاء على الشجرة من النزول. فما كان من الضابط إلا أن حملني ووجهني نحو الصبي وأطلق النار. ارتجف الصبي وتراجع من مكانه وهوى إلى الأرض، وتناثر رأسه على الصخر، وتدفق الدم غزيراً.

انتشر خبر مقتل الصبي فرهاد الأصم الذي لا يسمع ولا يتكلم، تجمع أهل القرية مستنكرين ذلك الاعتداء البشع على فرهاد الضعيف. بدأت النساء في العويل، وأصاب الرجال حزن كبير لمقتل هذا الصبي الذي لا حول له ولا قوة، فرهاد بن ميرزا الرجل الذي شق لهم الجبل وجلب لهم الماء من الجانب الآخر. عرف الضابط أنه اقترف أمراً شنيعاً لم يكن عليه أن يقوم به. إلا أن الندم لا فائدة منه، فالرصاصة قد خرجت من الفوهة. أما ابن ميرزا «هوشنك» الشاب الذي تأججت النار في جوفه حينما وجد أخاه غارقاً في دمه، لم يسكت، توعّد الضابط أن ينتقم منه شر انتقام ، وأمر الناس بعدم دفن أخيه في المقبرة التي تقع على سفح الجبل، وأقسم إنه إذا لم يسترد حق أخيه، فلن يدفنه، أو سيدفن إلى جواره. منعه أهل القرية من أن يقوم بتلك الخطوة. فذلك جيش كبير ولا طاقة

له به، وهو وحده بلا حول ولا قوة فكيف له أن يواجه جيشاً من إمبراطورية كبيرة. لكنه لم ينصت إلى كلام أحد.

قبل «هوشنك» رأس والده، وتقلّد خنجره وركب فرسه متوجهاً صوب الجنود الذين خيموا في نهاية الوادي. من بعيد كان يرى دخان النار التي أوقدها الجنود وهم يلتهمون الغذاء ويعاقرون الخمر، ويتحاورون حول الغنائم التي حصلوا عليها. نزل من فرسه وتلثم.

لم يكن هناك من يستطيع أن يقف في وجه هذا الجمع الغفير من الجنود. وحتى الإنكليز لم يكن في مقدرتهم الوصول إلى هذه البقعة. لذلك شعر الجنود أنهم في أمان، فناموا وتركوا عدداً قليلاً منهم من أجل الحراسة.

أحكم «هوشنك» اللثام حول وجهه، واقترب من أحد الحراس، أمسك به من الخلف، سدَّ فمه وغرز السكين في جسده وأرداه قتيلاً. ارتدى ثياب الجندي في الحال، واعتمر خوذته وحمل البندقية وتوجه إلى خيمة الضابط، في تلك الظلمة لم يتعرف إليه الجنود ولم يدركوا أنه غريب، وصل خيمة الضابط فوجده نائماً، وضع يده على فمه، أيقظ الضابط، وأزال اللثام عن وجهه، نظر في عينيه، ولم يترك له مجالاً ليفهم ما يدور، عاجله بطعنة في خاصرته، وظل جاثماً فوقه حتى تأكّد من موته، أخذني من الضابط الذي قتله. حملني معه وعاد إلى القرية يومها رفعني أمام أهل القرية وقال بصوت عالٍ. (ها هي بندقية الضابط الذي قتل أخي لقد نال جزاءه).

دفنوا فرهاد في ليلة لم تشهد لها القرية مثيلاً، كان «هوشنك» يخطط للهرب إلى الجبل، لكن الجنود لم يتركوا له مجالاً، قبضوا عليه وهو عائد من المقبرة

يوم دفن أخيه، قتلوه وأعادوه جثة هامدة إلى المكان الذي جاء منه.

لذلك وقفت الجدة في وجه هلمت ومنعته من أن يأخذني، كانت تمسك بي بقوة، وهو يشد النظر نحوي، ينتظر منها أن تسلمني إليه، ليذهب إلى حيث ينفذ وعده. ترددت الجدة:

- لا تكن عنيداً مثل جدك ووالدك... سوف يرديك الدب أنت لست بقادر عليه.

كانت خجاو واقفة تحدق في المشهد، لا تعرف كيف تتصرف، فهي لا تريد أن تفقد أخاها ويذهب إلى أمر مجهول قد يطول، إلا أنها لم تقدر في أي يوم أن تقف في وجه أخيها، وتمنعه مثل جدته، كانت تخاف منه كثيراً لا تقدر أن تخالف قوله قيد أنملة، وفوق ذلك فقد كانت تحبه كثيراً؛ لأنه كان بمنزلة أب وأخ لها بعد مقتل والدهما، طلبت إليها الجدة أيضاً أن تمنع أخاها من القيام بتلك المهمة. الا أن إصرار هلمت حال دون ذلك، في أثناء تلك المشادات دخل كاردو إلى الكوخ وهو يحمل بندقيته ليفض الشجار ويقول بحزم:

- لا تخافي دابيرة سوف أذهب معه، ولن أتركه وحده، هو يوم واحد، سنجده ونقتله ونعود سوية.

عندما شاهدت الجدة كاردو صاحب القامة الطويلة المفتول العضلات، اطمأن قلبها، لم تستطع أن تقف في وجه الشاب أكثر، وهو لن ينكث بعهد قطعه على نفسه، فهذا الأمر توارثه عن أجداده. تركني بسهولة، فتلقفني هلمت وحملني فوق كتفه. نظر بضيق إلى وجه جدته التي مازالت تحسبه طفلاً صغيراً، وكادت أن تودي بسمعته ومكانته كرجل أمام أهل القرية. التفت دابيرة إلى كاردو مهددة:

- إنه غرّ، لم يخط الشعر شاربه. إنني أعهد إليك بحياة الولد. إن حصل له مكروه فأنت المسؤول عنه، وسوف أحاسبك أنت.

هزّ كاردو رأسه، مدركاً أنه أوقع نفسه في مأزق قد لا تحمد عقباه مع تلك الجدة التي لن تتركه إن حصل مكروه لهلمت.

لم يرغب هلمت أن يرافقه كاردو، رغم أنه صديقه العزيز، وقد وقف إلى جواره في محن كثيرة، إلا أنه في هذا الأمر يرغب في أن يقوم به من دون أن يساعده أحد، أردف:

- لن أحتاج إليك... سوف أقوم بالمهمة وحدي.

استشاطت الجدة غضباً، لوحت بعصاه المصنوعة من عود الجنار، وقالت:

- وأنا لن أدعك تذهب وحدك.

عندها أمسك كاردو كتف هلمت وسحبه إلى الخارج، وهو يقول:

- لا تزد في الكلام... لنذهب ونجد الدب قبل أن يبتعد.

الصقر

هنا في جبل هلكورد يدعونني بازاً، أحمل اسماً عجيباً يهابني كل كائن يسير على الأرض، عندما أفرد جناحيّ وأحلّق فوق سفح الجبال، أنشر الرعب بسواد ريشي بين الحيوانات التي تسرح فوق السفوح، فتهرع إلى الاختباء تحت جلمود صخر، أو في أي أجمة توفر لها الحماية من جبروتي، لكنها لا تدرك أن بصيرتي الحادة تسبقها من مسافة بعيدة، وإن كنت أمخر عباب السماء، فإني أرى أي كائن ولو كان في مثل حجم نملة تسير عند السفح، أنقض عليه بلمح البصر، وأنشب مخالبي في جسده.

أعشعش في قمة الجبل، وتحدق عيني في كل شبر، من هناك أستطيع أن أرى ما يدور تحتي، عيناي تترقبان. أنا شبح الجبل، أنشر الخوف وأرهب كل طرائدي.

البشر الذين يسكنون القاع في الوادي. دوماً يحملقون فيّ وأنا أطير فوق رؤوسهم، يهابونني ويمتدحونني، ويتغنون بي في مجالسهم، حتى إنهم تيمناً بي يسمون أطفالهم على اسمي، رغم ضخامة أجسادهم، إلا أنني لا أخاف منهم، وهم يرتعبون من مشاهدتي حينما أحلّق فوقهم، ويظلون مشدوهين يحدقون بي.

بعد أن أخذوا الدببة من ذلك الكهف، ولكي يهدأ بال الدبة ، نزلت من السفح وراحت تضرب بمخالبها الفتاكة هؤلاء البشر، ومن ثم اعتلت الجبل إلى الطرف الآخر، راقبتها بحذر إلى أن نجت بفعلتها. رأيتها العام الفائت تقترب من القرية، تدمر طرود النحل التي كانت على الأشجار، وتبقر بطون الماعز وتنزع أحشاءها. أما اليوم فكان الأمر انتقاماً، ولم تزل إلى الآن في سفح الجبل، وما زلت أراقب خطواتها المسعورة بحثاً عن صغيرها.

فرشت أجنحتي في العش حينما رأيت الرجل الذي قتلت جده يخرج من كوخه حاملاً بندقيته يرافقه صديقه، اجتمع أهل القرية حول الكوخ، وهم يلتفون حول الشاب يودعونه، ويدعون له بالتوفيق في بلوغ مراده، أما أقرباؤه الذين كانوا يخافون من تلك الخطوة التي يقدم عليها، حذروه من أن الدب لا يرحم، ومن الأفضل له أن يتراجع عن قراره، ولا يودي بنفسه إلى التهلكة، وهذا ماكان يزيد من انقباض صدر الجدة التي كانت تجول بعينيها بين المجتمعين، إلا أن الشاب لم يستمع إلى نصيحتهم، كأنه قد قرر، ولن يتراجع عما قرره، فمن العار أن يدع قاتل جده يتجول في الجبال من دون عقاب. كان مصرّاً على تنفيذ ماعزم عليه، ولن ينكث بوعده. منهم من قال إنه شاب وستنطفئ في داخله النار التي أشعلها منظر جده بعد حين، ومنهم من وصفه بالعناد، لماذا لا يستمع إلينا، ألا يدرك مدى خطورة الأمر. ألا ترى كيف مزق العجوز إلى أشلاء. إنك في مقتبل الحياة وجدك قد بلغ أوج العمر، لماذا تضحي بشبابك من أجل عجوز كانت قدمه في القبر. والدب ليس سوى حيوان شرس لا يسيطر على غرائزه. ذكروه بوالده ليردعوه عن خطوته، لا تكن مثل والدك واجه من هو أقوى منه فخسر حياته، كل تلك الكلمات لم تكبح جماح الشاب، وإنما زادته حماساً واندفاعاً، شعر أنه ذاهب إلى مهمة كبيرة، ليلاقي كائناً فتاكاً مثل وحوش الأساطير الخرافية، وسيثبت ذاته بين قومه. وهناك بعض من أهل القرية كانوا أشد حماساً، يتمنون أن يذهب الشاب ويقضي على الدبة التي باتت تشكل خطراً على حياتهم، فلم يعودوا يستطيعون أن يخرجوا ويتجولوا في الأنحاء، وهذا المفترس الكاسر يحوم في الأطراف.

كان كالصخرة الصماء لم تؤثر فيه توسلات أهله، لم يلتفت إلى أحد، بل قطب حاجبيه، واندفع مسرعاً إلى السفح يرافقه صديقه، يعتليان الصخور، ويصعدان

إلى الأعالي من أجل اصطياد الدبة. لم يعجبني ما فعله الدب. ولا أرغب في أن يبقى الدب في هذا السفح؛ لأنه سيشاركني في الصيد ويرعب فرائسي ويقضي عليهم، فلا يُبقي لي ما أقتات عليه. كان ضخم البينة، له مخالب حادة تحطم كل شيء يقع تحتها. حتى أنا أتوجس من الاقتراب منه. لم أعلم كيف أنبه هذين الرجلين إلى وجهته. على الرغم من أنهما كانا يقتفيان أثره، ويسيران نحوه، إلا أنه قد سبقهم بمسافة طويلة يصعب عليهما بلوغها.

كانا يمعنان النظر في الأرض بحثاً عن آثار أقدام الدبة، فيجدونها بين فينة وأخرى، وتدلهما إلى الطريق الذي ذهبت إليه. سارا على آثارها المحفورة على الأرض المتربة، بين الأعشاب وأزهار البرية. كانت الآثار تختفي بين فينة وأخرى داخل الغابة، يبدو أنها تتوجه نحو الجهة الشمالية من الجبل، لم يكن لديهم متسع من الوقت ليعثروا على أثر آخر، كان عليهم أن يستعجلوا، فإن ظلّا يتفرسان في الأرض فإنهما سيمضيان النهار كله بحثاً عن آثار جديدة، وسيحل الظلام ويختفي الأثر وتكون الدبة قد ابتعدت. رفع الشاب رأسه وهمس بكلمتين في أذن صديقه وطلب منه أن يلحق به، اجتازا الأخدود، وسارا بسرعة، كان هلمت يعرف كل خفايا الجبل، كل بقعة يجتازانها يعرف ما سيأتي بعدها من صخور وشقوق، كان منظر المروج يبدو آسراً من الجبل. كانت الأرانب والسناجب تهرب من طريقه، والعصافير تطير مبتعدة.

أراقب بدقة كل خطوة يخطوها الشاب الذي يتبعه صديقه؛ إذ إنه لا يستطيع أن يسير بالسرعة نفسها. بدا عليه الإصرار وعدم التراجع عما أقدم عليه. أعجبت بذلك فهذه إحدى صفاتي، لو كان له جناح وطار مثلي لرأى مرابع الجبل بصورة حسنة، وعرف موقع الدب الذي يقع تحت ناظري.

كانت الأشجار الواقعة على الطريق تعوقه، والصخور الحادة تجعله يسير ببطء. وكان صديقه متأخراً عليه كثيراً، يلهث في الطريق. بينما الدب يبتعد أكثر فأكثر. رويداً رويداً بدا قادراً على مغالبة صعاب الجبل. وصلا جرفاً عالياً، كان عليهما أن يتسلقاه، حملق فيه صديقه وهو يغالب التعب، وطلب إليه أن يستريحا، فهتف:

- أنت عبء علي. كان يجب أن تبقى بين أطفالك.

لم ينتظره، ضرب التراب والصخور تحت قدميه، وأطلق العنان لساقيه، وانطلق في طريقه. كان يؤمن أنه سيجد الدب. وأنه يسلك الطريق الصحيح. لحق به صديقه من بعيد وهو يتمتم « ليتني جلبت البغل معي».

شدني اندفاع الشاب، ثار الدم في عروقي، وأطلقت العنان لنفسي، ونزلت فارداً جانحي على ذروة الجبل منْدفعاً نحو الشاب، أدفعه وأشجعه على أن يستمر في بحثه. كنت أود لو أخبره عن وجهة الدبة، إنها هناك، تبعد عنه ميلاً، وإن لم يسرع ستختفي بين صدوع الجبل في مكان لن يراه أحد. كلما كان يخطو الشاب خطوة، كان يرفع رأسه عالياً و يحدق في الصخور والمفاوز التي يعتليها والتي عليه أن يتسلقها. لم يلتفت إلى الخلف، ولم ينتظر وصول صاحبه. حلّقت على مسافة بالقرب منه. لاحظ وجودي في السماء، وأنا أدور فوق رأسه كأنني أبحث عن طريدة. افترّ ثغره عن ابتسامة، كأنه أدرك أنني أبحث معه عن ذلك الدخيل الذي دخل مرابعنا، وعلينا أن نقضي عليه معاً.

كان يقطع الطريق بكد، يعبر الجداول المنسابة تحت قدميه، ويصيخ السمع إلى صوت العصافير والجنادب وخرير الماء لعله يسمع صوت خطوات الدبة

أو خنخنتها. تدخل في رأسه مختلف الألحان التي تكاثرت في هذا الفصل في مقتبل الربيع. ويتمعن في صوت العصافير والبلابل وحفيف أغصان الأشجار، وينصت بدقة، فهو يفرق الأصوات ويعرف أي الصوت غريب عنها. كان يعكر عليه ذلك، صوت الأغصان المتشابكة، وخشخشة أوراق السنديان.

بعد أن قطع مسافة، وصل إلى البركة التي تقع في وسط الجبل، وتواجه أربعة تلال، ويتجمع فيها الماء الناجم عن ذوبان الثلوج على قمة الجبل. هناك توقف الشاب وتنفس الصعداء، دار بعينيه في أرجاء المكان، لعله يجدها، كان يحدّق في الأغصان المتكسرة، لعلها كسرتها في طريقها إلى الماء.

وقفت فوق نتوء صخرة، وبدأت أحدق فيه ويحدق في. تردد في نفسه كأنه يريد أن يسألني أين أجد الدبة يا باز. فحلّقت عالياً وتوجهت ناحية الشمال لعله يدرك أن الدب قد سلك ذلك الدرب. بعد هنيهة ظهر صديقه الذي أدركه في النهاية وقعد أمام البركة يرتشف من الماء القليل، وقد استبد به التعب. لم يبالِ به، وإنما حث الخطى، وأعاد البندقية إلى كتفه، ونظر إليّ وأنا أطير متوجهاً نحو الدبة التي ماتزال تحت أنظاري، وهي تبتعد رويداً رويداً.

وخلال تحليقي لمحت أرنباً بريّاً بنياً يقفز إلى مقربة من البركة، وحينما لمحني أسرع بالهروب نحو وكره خلف الصخرة، كان الجوع قد أمضّني، فكنت أسرع منه، وقبل أن يختفي خلف الصخرة، هويت إليه مسرعاً وأمسكت به، نقرت عنقه وعينيه، لاحظ الشاب ذلك، هزّ رأسه متأسفاً، فقد ظن أنني لم أكن أدله على الدبة، بل كنت أحوم حول صيدي. لذلك أشاح عني ويمم وجهه شطر الغرب، وأخذ يسلك درباً خاطئاً.

هبّ من السفح هواء بارد حرك ريشي، إلا أنه لم يحد من حركة الشاب، أعجبتني شجاعته، ولكن، هل سيكون قادراً على مغالبة تلك الدبة إن وجدها. حملت فريستي وحلّقت بها عالياً إلى القمة حيث عشي. هناك رميت الفريسة، كنت في عجلة من أمري. نزعت من عنق الأرنب بعض اللحم، والتهمته بسرعة لأسدّ به جوعي، وتركت فريستي على أمل أن أعود إليها فيما بعد. وانطلقت كالسهم نحو الشاب الذي لم يركن إلى التعب.

طال المسير، وبات صديقه يتنفس بصعوبة. وغطت الغيوم السماء، وانكفأت إلى مساكنها، وبدأ الظلام يخيم، ومازال هلمت الذي غابت آثار أقدام الدب عن ناظره، ولم يعد يعرف أي طريق يسلك، حتى أنا من كثرة الدوران لم أعد أميز آثاره، أين اختفت الدبة. وتحت أي شجرة اختبأت؟ كنت أحلّق لمسافة طويلة، وأدور في الأعالي، أفتش في المنعرجات، ومن ثم أحط فوق إحدى الصخور أو الأغصان، اتبع الشاب الذي تعب وكاد أن يفقد الأمل ويتوقف، لكنه تذكر العهد الذي قطعه على نفسه أمام أهل قريته.

صديقه لم يعد يستطيع مواصلة السير، فجلس على حافة جرف صخري، ينظر إلى هلمت وهو يغالب الصخور، ويعتليها الواحدة تلو الأخرى لعله يجد الدبة. ناداه، وطلب إليه الرجوع، لكنه لم يصغ، على الرغم من أنه راح يتعثر في مشيه، ودب الوهن في ساقيه اللتين لم تعودا تقويان على حمله، وتسلق الجروف الصخرية. توقف لبرهة قصيرة، وتنفس الصعداء ملتفتاً إلى صاحبه الراقد على حافة الجرف البعيد، اتكأ على صخرة، وراح ينظر إلى السماء وقد أطبق الظلام. أدرك أنه قد فقد أثر الدبة ولم يعد يميز مكانها، ولن يستطيع مواصلة السير في الظلام. فهل يعود أدراجه خائباً، وهذا لن يكون ولو خسر حياته! كيف سيظهر

أمام الناس وأهل قريته. سيسخرون منه ولن يثقوا به مرة أخرى في حياته؛ لأنه رجع في كلامه. كيف له أن يكسر عادة أجداده في تنفيذ كلامهم.

شعر أن الخدر يسري في أوصاله، فقد سار طويلاً، وطغى التعب على جسده، فظل جالساً. أدرك أنه قد سلك طريقاً خاطئاً وعليه أن يعود أدراجه من حيث جاء، كما أن الانتقال من طرفٍ إلى آخر محفوف بالمخاطر.

وأنا أيضاً تعبت من التحليق، أقعيتُ على حافة جرف، وبدأت أتفرس في الشاب الذي عادَ أدراجه إلى عند صديقه. وعادا إلى البركة. وقد حلَّ الليل عند وصولهما إلى البركة. تردد صاحبه في أن يقضيا الليل هنا، قال:

- يجب أن نعود إلى القرية.

ندّت صيحة غضب عن هلمت، وكأن ما تفّوه بهِ الرجل يمّس سمعته:

- كيف تريدني أن أعود إلى القرية ولم أقضِ على... وحتى أنني لم أجده.

استغرب كاردو منه مستفسراً:

- وماذا ستفعل طوال الليل هنا؟... سوف تأكلك الذئاب والضباع.

قال الشاب غاضباً:

- لتأكلني الذئاب، ولكن، لن أتراجع عن كلامي وأنزل من الجبل.. لن أرفع رأسي ما حييّت إن نزلت!

- وأنا لم أمنعك من مواصلة بحثك... عد غداً إلى الجبل وابحث عن دبك.

- لا، لن أنزل... كيف سيكون موقفي أمام أهل القرية ... لقد قطعت وعداً ولن أتراجع عنه.

فكر كاردو أنه لن يستطيع البقاء أكثر في هذا الليل، ويترك عائلته في أسفل الجبل وحدهم، تلّعثم كاردو:

- ولكنني لن أستطيع المكوث معك هنا طوال الليل.

حملق فيه هلمت بغضب، وأنزل البندقية من كتفه، وأشار إليه:

- عذ أدراجك إلى القرية ... إلى حضن زوجتك، لن أحتاج إليك، انتهت مهمتك الآن، ولا أريدك أن تعود صباح غد.

- يا لك من عنيد! ولكن، جدتك، ماذا أقول لها؟

- قل لها إنها حياته، ولن يعود عن قراره.

تردد في مكانه، لم يكن يعرفُ ماذا يفعل بصديقه العنيد. هل يتركه وحده، أم يبقى معه.

علّم ألا فائدة ترتجى منه، ولن يسمع نصيحته ولن يأخذ بأقواله، لذلك لم يكن أمامه سوى أن ينزل الجبل، ويدعو له بالأمان، وأنه سيشهد عقوبة كبيرة من الجدة التي ستوّبخه؛ لأنه ترك حفيدها وحيداً.

تحرك إلى الأسفل خطوات عدة، ثم عادَ أدراجه وقف أمامه. فهو لم يعتد النوم في العراء وعليه أن يجد مكاناً ينام فيه، سأله:

- أين ستقضي ليلتك؟

تلّفت هلمت في أرجاء المكان. كانت أشجار الصنوبر والسنديان كثيرة، إلا أنها لم تكن تصلح للمبيت. فكّر في الكهف الموجود في أعلى الجبل، علم أن الذهاب إلى هناك في مثل هذا الوقت المتأخر سيكون مخاطرة. ثم وقعَت عيناه على خرابة تقع في الناحية الغربية من الجبل عند الينابيع، تذّكر منزلهم القديم وقد أصبح خراباً. فكّر أنها ستنفعهُ في قضاء ليلته هناك إلى أن يأتي الصباح، وسيستمر في سيره من الصباح الباكر إلى حيث يجد الدب:

- سأنام في منزلنا عند «الترع».

وجدَّ أن الفكرة جيدة طالما لن ينزل من الجبل، ولن يجد مكاناً مناسباً أكثر من ذلك النزل القديم الذي تحطم في الآونة الأخيرة. تمتم الرجل :

- إذن، على الأقل سوف أرافقك إلى هناك، وأطمئن إلى حالك.

وقفَ الشاب في طريقه يحاول منعه:

- لا، عذ أنت أدراجك قبل أن يخيم الظلام، وتضيّع طريقك.

- لاتقلق، أعرف الطريق إلى هناك، وسأعود غداً إلى القرية بعد أن أقضي على ذلك الدب.

لم يستطع كاردو أن يتحرك قيد أنملة من مكانه، لكن هلمت طلب إليه أن يعود إلى القرية، فحمل بندقيته وبدأ بالنزول من السفح، وهو يعلم بأنه سيلاقي دابيرة بوجه كسيرٍ، وسينال عقاباً شديداً؛ لأنه ترك صديقه وحيداً.

الفانوس

بعد أن اختفت الشمس خلف التلال الواقعة في الجنوب. أوقدتني الجدة شاه كول، ويداها ترتجفان كالعادة بعد أن رفعت الفتيل، وتأكّدت من ملء خزاني بالوقود. بأصابعها المرتجفة أدخلت النار في فتيلي وأشعلته، أنّرت المكان المُظلم، وأصبح كل شيء ظاهراً للعيان. هكذا دوماً أنا السراج الذي أبدّد الظلام، وأجعل هؤلاء القوم الذين لا يملكون نوراً يبدّدون ظلامهم بي. وبعد أن يعلو لهبي يضعونني على الدكِة الواقعة في وسط الكوخ، لذلك في وسط ذلك المنزل الصغير كنتُ أرى كل شيء من الأواني والطبخ، وحركة أهل الكوخ و أعرف حتى كل طعام يأكلونه. وفي الليل تجلس العجوز وتبدأ بسرد حكاياتها. حكايات بدت أنها لا تنتهي أبداً عن ألم تلك العجوز وقهرها. إلا أن هذه الليلة كانت مُختلفة تماماً، فقد حدث أمر سيخمد النار التي كانت تتقد، وهي تتنهد بعمق والخوف يرتسم على وجهها، وهي تنتظر قدوم حفيدها هلمت.

كانت تزرع الغرفة الصغيرة التي لا تتعدى الخمسة أمتار جيئة وذهابا، كانت الغرفة تحتوي على كل شيء، صندوق تراكمَت عليه الفُرش، والأغطية، وسجادة تغطي جزءاً من الأرضية، وأواني المطبخ، والحطب الذي يستخدمونه للطهي والتدفئة، وفي ركن منها، كانت الحظيرة، حيث الدجاج، والماعزتان اللتان تنّهدتا في سهاد توزعان أنفاسهما في أرجاء الكوخ.

تذكرت الجدة كيف ماتت الأم يوم ولادة هلمت، كان الثلج يغطي الأرض، تغوص فيه الأقدام حتى الركبة، حينما جاء وقت المخاض، كانت شاه كول إلى جوارها، وقدّمت لها مايلزم من المساعدة، لكن النزيف الحاد استمرَ بعد ولادة

هلمت، ولم تستطع الجدة إيقافه، كانت الطرقات مقطوعة بسبب تراكم الثلوج، فلم يستطيعوا أخذها إلى المدينة. ماتت وهي تشاهد ندف الثلج عبر النافذة، لكنها، لم ترَ وليدها.

كان القلق بادياً على ملامح الجدة وهي تنتظر عودة هلمت من على الجبل. وقُمرية الأخت الصغرى لهلمت تحملق في الجدة بخوف، طال الوقت وغطى الظلام الكون. كُنت في صراع مع الظلمة، أردتُ أن أرى قسمات العجوز المتغضنة وهي تذرف الدموع، وتنادي بصوتٍ واهن:

- لتذهب أرواح أجدادك العنيدين إلى جهنم، كيف لك أن تذهب وتقاتل دباً، ماذا حل بكما؟

سُمع طرق على الباب، فتحت قُمرية، كانت خجاو تقف أمام المنزل تستفسرُ عن عودة زوجها. قالت بقلق:

- عناد أخي، سوف يودي بحياة كاردو.

أنزلتني الجدة عن العمود، وتوجهت بي خارجاً، تحاول عبثاً أن تُنير الدرب التي تؤدي إلى الجبل. كانت العيون كلها مصّوبة ناحية السفح. والغابات قد سادها الظلام، ولم تعد تسمح بالرؤية من خلالها، ولم أستطع أن أنير سوى بضعة أمتار. علا صوت الجنادب والضفادع والجراء في الأجواء. كان حفيف أغصان الأشجار ينذر بهبوب ريح عاتية تحمل المطر معها. وانتشرت الغيوم الرمادية في السماء. شعرت بارتعاش يدها. هل كان ذلك خوفاً، أم بسبب سنها. كانت تتمتم ببعض المفردات النابية عن حفيدها. أما خجاو، فقد كانت تزرع المكان جيئة وذهاباً.

بعد حين ظهر هاوري وميكائيل من الظلام، جاءا يستفسران عن هلمت. كانت الأعين كلها مصوبة نحو الجبل، الجدة تلعن الدب والدرب الذي جاء منه. في همساتهم يظهر الخوف، من أن تكون الدبة قد قتلتهما، لكن ميكائيل أزال شكوكهم بقوله:

- لا أظنهما قد وجدا الدبة، وإلا كنا سنسمع صوت طلاقات نارية. لذلك لا داعي إلى الخوف من أن تكون قد التهمتهما.

قالت العجوز وهي تمد لسانها من فمها الأدرد:

- ليذهبا إلى الجحيم، إن أكلتهما.

نذت عن خجاو صرخة رعب، حينما قال الشابان إنهما شاهدا الدبة هذه الصباح، وهي تتوجه إلى الجبل، ولم يستطيعوا الاقتراب منها، وإنما فرا بمواشيهما نحو القرية، فسمعا ما حدث.

بعد هنيهة، تكدر الجميع وهم يشاهدون الظلام الدامس من بين الأشجار يتحرك كهبة هواء كبير. انتابهم الرعب من أن يكون الدب قد أقبل عليهم. تراجعوا من أماكنهم وهم يرون تحرك الأعشاب، وبغتة، تبينوا ظل رجل وهو يكد نازلاً. وحينما اقتربَ من ضوء نارنا، عرفوه، كان كاردو نفسه. أقبلت عليه الجدة وهي تلتفت إلى خلفه تنتظر ظهور هلمت من الظلام. إلا أنه لم يظهر. انتابَها الخوف، هل حل مكروه بهلمت. هل التهمته الدبة. ما لم يكن يرغب كاردو في رؤيته، هي الجدة (شاه كول) كيف سيرد عليها، تمنى لو تنشق الأرض وتبتلعه، ولا يرى تلك العجوز المثغضنة الوجه المملوء بالبثور، كانت الجدة تعتمر قبعتها

الكبيرة الواسعة التي تتدلى من أطرافها الليرات المعدنية الصغيرة، مما أضفى على مظهرها رعباً حقيقياً، صرخت في وجهه حينما لمحته:

- أين هو؟ لست رجلاً، كيف تعود من دونه؟ لولا كلامك لما سمحت له أن يسلك الطريق إلى الجبل، وما كنتُ أسمح له بمغادرة المنزل، والله لو حدث له مكروه، فلن أسامحك أبداً.

النافذة

على الرغم من صغر مساحتي، فأنا كوة صغيرة في الجدار، تحيط بي أربعة أعواد من خشب السنديان. إلا أنه في وسعي أن أرى مساحة واسعة من الشِرفة المطلة أمامي على الطريق الموحل الذي يفضي إلى أسفل الجبل. أرنو إلى المنازل المصنوعة من الحجر. تمتدّ أمامي تلك المناظر بدءاً من سقف المنازل التي تقع إلى الأسفل، وإلى أشجار البلوط المنتشرة في باحات المنازل، حيث تمتد إلى الجدول الذي يسقي القرية. من خلف تلك الأشجار تمتد مساحة شاسعة منبسطة من السهل الذي يزرعه أهل القرية، وينتهي ذلك السهل عند أقدام جبل هلكورد الشامخ الذي يرتقي إلى السماء. على الرغم من مساحتي الضيقة، إلا أنني أمد الغرفة المظلمة ببصيص نور يتجاوز عدّة أمتار في الغرفة، وينسكب من خلالي الضوء الذي يغمرُ كل أرجاء الغرفة بالتوالي مع دوران الشمس. تمرّ من خلالي العصافير التي تصنع أعشاشها في خشب السقف، تضع بيوضها فتفقس، وتخرج صغارها إلى الحياة. في فصل الصيف أظل مفتوحة طيلة النهار، ولكن، في الشتاء القارس أكون مغلقة دائماً، تصفعني حبات البرد والثلج من الخارج.

تجلس أمامي تلك المرأة الجميلة ذات العينين العسليتين والتي تدعى نيركز. تجهشُ في البكاء بقهر في انتظار القادم الذي سيطرق عليها الباب ويخرجها من أحزانها. أنفاسها الحارة تلفحني. كانت تنتظر قدوم حبيبها هلمت، إلا أن أمراً جللاً قد حاق بذلك الشاب الذي انتشر خبر صعوده إلى الجبل في أرجاء القرية.

كانت تجيء وتروح تراقب العاصفة، وتقدّم نذورها ودعاءها إلى الرب من أجل أن يكون هلمت بخير، ومع ازدياد حلكة الليل يزدادُ خوفها، كيف له أن يتدبر أمره

في هذا الليل الحالك. هل قتله الدب. إنه مازال غضاً، لا يستطيع مواجهة دب متوحش. ذلك الحبيب الذي تملّك قلبها، كيف له أن يختفي بين ليلة وضحاها. هذا العشق الذي منحه الرب لها، بعد أن يئست من حياتها وشعرت أن العالم قد أقفل أبوابه في وجهها، وستظل وحيدة، من دون حضن دافئ ترتمي فيه في ليالي البرد والوحشة! شعرت أن هذه هي معركتها الأخيرة مع القدر.

Telegram:@mbooks90

انتابها القلق من أن يكون حدث له مكروه، وإلا لمَ كل هذا التأخير. لماذا لم يعد؟ ماهذا الدب الذي بعثه القدر ليخرب حياتها. لو أن الأمر في يدها لمنعته. لو كانت الآن زوجته لما قبلت أن ينطق بذلك الوعد ويلتحق بالجبل، فليذهب كل شيء إلى الجحيم، المهم أن يبقى حبيبها هلمت.

في انتظار أن يعود ويرد له ما يبرد قلبه، أصبحت خطواتها أسرع وقلبها يدقُ أكثر. تحمّلق من خلالي إلى الطريق المفضي إلى منزل هلمت. لم يكن يردها سوى صمت الظلام.

رأت من بعيد دلير الراعي الذي يرعى ماعز دابيرة، شعرت بالخجل من مناداته، إلا أن العاطفة تغلبت، ونادته: دلير... دلير... ومن الظلام اقترب الشاب من الشباك وهو يحملق في عيني المرأة اللتين يظهر فيهما القلق. سألته عن هلمت، فأدرك أن هذه المرأة تكنّ شعوراً خاصاً لهلمت. ابتسم ابتسامة باهتة، فظهرت أسنانه الصفراء، وأخبرها ما أخبرهم به كاردو.

اختفى الراعي في الظلام، وتركها وحدها مع هواجسها، فسقطت أرضاً، وأجهشت في بكاء دامٍ وهي تحملق في القمر الذي ينير السماء، وتندب حظها، فبعد أن وجدَت من يملأ وحدتها ويطلب يدها. ها هو الدب يأخذ حبيبها، كما أخذَ

الروس زوجها.

الطلل

أصبحت طللاً، لم يتبق مني سوى أربعة جدران مهدمة وقع سقفها، تخلّعت أبوابها، وحجارتها متناثرة في أرجاء المكان، أما النوافذ فلم يبقَ لها أثر. وحيدة في هذا السفح المترامي. تلعبُ بي الريح من كل جانب. لم تعد الحياة تنبض في أرجائي، بعد أن غادرني أصحابي. كانوا يعيشون في رغد، يتحدثون تحت سقفي، ويخططون لمستقبلهم، بعد رحيلهم لم يعد يزورني أحد سوى هؤلاء الغرباء الهاربون من موطنهم، والفارون من جرائمهم، يختبئون هنا في داخلي ويتخذونني مأوى لهم، يقضون هنا لياليهم المملوءة بالخوف، ومن ثم يرحلون على أمل أن يجدوا مكاناً أبعد من هذا الجبل، وأرضاً أكثر أمناً تحميهم من مطاردة الناس. منهم من هربَ مع عشيقته بعد أن رفضت التقاليد زواجهم ليقضوا لياليهم الحميمة في هذا الخراب والخوف يتملّكهم من أن تُقطع رؤوسهم في أي لحظة، وهم يقضون أجمل ليلة في حياتهم بين جدراني، ثم في اليوم التالي يحملون أغراضهم ويرحلون قبل أن يصلوا إليهم ويقتلونهم. في بعضِ الأحيان يأتي قطاع الطرق (جتة) ويتخذونني مقراً لهم ليكون منطلقهم إلى السرقة، فينزلون من الجبل ليقطعوا الطريق أمام الناس وينهبون ما يملكونه من مؤن، ويعودون أدراجهم مع غنائمهم إلى هذا الخراب، يوزعونها فيما بينهم ومن ثم يقفلون راجعين أدراجهم كل واحد إلى بيته في القرى التي جاءوا منها. في بعض الأحيان تأتي بعض الحيوانات، وتسكن جوفي، وهم أقل بشاعة وضرراً من البشر. لا يقومون بتلك الأعمال القبيحة، يسكنون المكان ويغادرونه بصمت.

انقضى زمن طويل، ولم يزرني أحد، إلى أن دخل عليّ شاب غريب، بعد أن استكشف المكان، بدأت أميز وجهه وأتعرف إليه، كان يحمل بندقية، وفي وجهه

كدر كبير، يبدو أنه قد ضل الطريق، هل هرب من القرية بعد أن ارتكب جرماً شائناً، وجاء يحتمي هنا. أم أنه رحال اتخذني محطة له ليرتاح ويغادر بعد أن يطلع الصباح.

وضع الشاب بندقيته وذهب خارجاً يجمع بعض الحطب، عادَ وأشعل النار، فتوهج المكان وتبينت ملامحه بشكل أوضح. وجهه كان مألوفا، كأنني قد رأيته من قبل. لم يكن غريباً! جلسَ في أرجائي، وراح يلقي الحطب بين فينة وأخرى إلى النار، إنه يشبه (ميرزا) ذلك الرجل المغوار الذي عرفته القرية كلها، حيث حفر في الجبل قناة طويلة. هل هو أحد أحفاده هل هو (ابن هوشنك) البطل الذي انتقم لشقيقه وقتل الضابط. هل هو الطفل الذي كان يحبو على أرضيتي والمخاط ينزل من أنفه. لقد شبَّ الآن وأصبحت له عضلات مفتولة.

بعد أن غادروني قبل عشر سنوات ونزلوا ليسكنوا القرية في الوادي، تركوني وحدي وأصبحت خاوياً لم أرهم منذ ذلك الحين إلا مرتين. زارتني دابيرة قبل خمس سنوات قبل أن يقصم الزمن ظهرها، ولم تعد تستطيع التغلب على صعاب الجبل، فظلت في قعر الوادي إلى الأبد. كانت تبكي بحرقة حينما زارتني آخر مرة. تذكرت حياتها مع زوجها ميرزا وكيف قضيا حياتهما في هذا السفح، تنتظرُ بفارغ الصبر أن ينهي زوجها ما تعهد به لأهل القرية، بأن يحفر لهم قناة تمتد من خلف الجبل إلى الوادي ليجلب لهم الماء، ليرتوا منها ويسقوا بساتينهم بعد أن عانوا من الجفاف جراء الزلزال العنيف الذي سدّ مجرى الينبوع الذي يغذي الوادي ومنعَ مياهه من أن تترقرق مرة أخرى، فأصابهم الهلع من أن يطول الجفاف فيصعب البقاء، كانوا يجمعون حاجياتهم للمغادرة، فاستوقفهم ميرزا وتعهد لهم بأنه سوف يجلب لهم الماء من الينبوع الواقع في الطرف الآخر من

الجبل وسيغذي القرية والمزروعات منه.

كان الفصل صيفاً حينما حلّت الكارثة، اهتز الجبل اهتزازاً عنيفاً، زلزال قوي كادَ أن يؤدي إلى زوال القرية القابعة عند حافة الجبل، تشققت الجدران وانهارت السقوف وتهدّمت بعض المنازل، طارت العصافير هاربة إلى السماء، أما الحيوانات التي تعيش في الجبل فقد فزعت وارتعبت من الهزة، وهربت إلى أوكارها، وصعد بعضها إلى غصن شجرة أو وجدَ هوة فحشر نفسه فيها من دون أن يعلم أن ذلك سيودي بحياته. وبعد أن هدأت ثورة الجبل، خرج الناس من أكواخهم التي تهدمت بعض جدرانها، وتساقطت أعمدة الخشب من فوق المنازل؛ خرجوا يتفقدون الوضع ويسألون عن سلامة الآخرين، وقد أصيب بعضهم بجروح بليغة وتوفى أكبر مسن في القرية، كانوا يطلقون عليه لقب «عامود القرية» ولكنه مات تحت أنقاض منزله وحيداً.

الكارثة الكبيرة كانت في الوادي حينما لاحظوا حالة غريبة، وهي أن المياه بدأت تقل وانخفض منسوبها إلى أن انقطعت تماماً، حينها هرَع أهالي القرية إلى الينبوع الواقع في أعلى السفح ليتأكدوا من سلامته، فذلك الينبوع هو مصدر حياة القرية، يسيل من الجبل ويجري على بساط الأرض، وينتهي إلى نهر صغير يجري بعيداً. وعندما وصلوا إلى الينبوع أصابهم الهلع لقد انقطع الماء ولم تعد تخرج منه قطرة، كأنه جف إلى الأبد، حينها أدرك سكان القرية أن موتهم محتوم، وأن الينبوع قد تهدّم في الداخل جراء الهزة الأرضية، وانسدّت الشقوق التي تمُدها بالماء.

عمّ الرعب وجوه أهل القرية، الذين لم يهتموا لهدم منازلهم بمقدارِ قلقهم من انقطاع الماء عن أرضهم. إذ إنه من دون الماء لا حياة في هذا الجبل الشامخ

المترامي الأطراف. عمّ الخوف وكأن القرية قد خرجت من كارثة حرب ملعونة ودخلت في معضلة أخرى، هي انقطاع الماء.

يومها صعدَ ميرزا إلى الجبل، وبدأ يبحث عن ينبوع آخر قريب من القرية. في الجهة الجنوبية حيث يوجد ينبوع كبير يتدفق من الجبل وينتهي إلى الرابية البعيدة. درسَ الأمر بتمعن، وسلك طريقاً متعرجاً مائلاً، وخطط وهو يغذّ السير مع الانسياب والانحدار من طرف الجبل محاولاً أن يدرس كل الشقوق والسبل التي يمكن أن يستغلها في مشروعه لإيصال الماء إلى القرية، وبعد أن سار في محاذاة الجبل ووصل إلى جهة قريته حيث الجدول الذي جف. ذهب إلى وسط القرية ونادى بصوت عالٍ يدعو أهل القرية:

- لن نهجر قريتنا التي بناها أجدادنا هكذا بسهولة، ابقوا في منازلكم وأعدكم أن أحفر قناة ماء من ينبوع في الجبل إلى قريتنا هذه، و لن أنزل من الجبل مالم أوصل الماء إليكم.

كان أهل القرية يستمعون إليه غير مصدقين ما يتفوه به. فهو معروف بشهامته، وصدقِ كلامه، وأن وعده قاطع كالسيف، ولم يخذل أحداً، وهذا ماكانوا يحتاجون إليه، أن يصلهم الماء ليعيد إليهم الحياة من جديد، أخبرهم أنه سيشق الصخور، ويحفر قناة طويلة تلتف حول الجبل إلى أن تصل إلى قريتهم. فرح الجميع، عانقوه ووعدوه أن يساعدوه في مشروعه.

صعد إلى الجبل وخلفه مجموعة من الفلاحين، بملابسهم الرثة ومعاولهم المتينة، بدؤوا يشقون الصخور ويكسرون الحجارة، يسيرون خلف معلمهم ميرزا الذي أصبح رئيسهم وقدوتهم، يحتذون به وينفذون أوامره.

وكما عاهدهم ميرزا، ظل في الجبل ولم ينزل من سفحه، لازم القناة التي يحفرها، يحفر ويشق الصخور مع أعوانه، ينام إلى جوار الساقية، يخطط في الليل وينفذ أفكاره في اليوم التالي. طلب إليه أهالي القرية مراراً النزول من الجبل إلى القرية، والعودة معهم إلى العمل في اليوم التالي، إلا أنه كان يرفض أن ينكص عن وعده، كل ذلك العزم والإصرار زادَ من أعجاب أهل القرية به، وأصبح محل احترام لدى الجميع؛ لأنه يعمل ويكد لصالحهم، ورفض أن ينزل من الجبل، وظل ينام بين الصخور تنفيذاً لوعده الذي التزم به. بناني هنا على طريق الجدول حيث مكان عمله، وبعد سنة ونيف وصلت القناة إلى القرية، وتدفق الماء من خلالها ليبهر القرية بعمله، وأصبح بطلاً تلهج بذكره الألسن، ويطير ذكره في أرجاء الوادي الطويل.

الدخان

اجتمع الرجال في ديوان الشيخ (حسن)، ودخان سجائر التبغ يعبق في الجو، ينفثونه من صدورهم البائسة، وهم يحدقون في بعضهم بعضاً، وسحابات الدخان تحيط بهم، يناقشون أحداث القرية، ويهزّون رؤوسهم، وهم يذكرون هلمت الذي مازال في الجبال، ويرفضُ العودة إلى أحضان القرية، مالم يقتل الدب.

- إنه مجنون، من يستطيع أن يمكث في الجبل ليل نهارا!

- بقيت ذات ليلة في المغارة من أجل الصيد، لم أتحمل الوحدة عدت مسرعاً.

- إنه بحق شجاع، لم أعتقد أن هلمت يمتلك كل هذه الشجاعة...

- إنه مجنون، من يفعل هذا بنفسه كيف يستطيع أن يقتل دباً؟

- بل انه عنيد مثل جده ميرزا ووالده هوشنك عندما قتل الضابط العثماني.

استوضح احدهم، يرده:

- لا ليس مثلهما.. فجده قامَ بعمل حسن لمصلحة القرية وانقذ الناس من الجفاف.. اما والده فانه أنتقم لجريمة البشعة التي قام بها ذلك الضابط.

- وماذا عن هلمت؟

- ليس البطولة في قتل حيوان.. ولكن على مايبدو أنه اصبح أسير القسم الذي تعهد به لايستطيع ان يتراجع عنه.

قال الشيخ:

- هل يصح أن نبقى مكتوفي الأيدي، من دون أن نفعل شيئاً من أجل هلمت؟

ردَّ أحدهم:

- ولكنه قد ركب رأسه، ويرفض مغادرة الجبل.

- يجب أن نرسل من يستطلع حاله، هل هو بخير، وإلى ماذا يحتاج؟

- ولماذا نذهب، وهو عنيد، يرفضُ أن يناقش طلبنا في التخلي عن عناده.

- ولكنه من أفراد القرية ماذا لو حصل له؟ مكروه كيف سنرد على الناس؟

- دغه، ربما يقضي على الدب.

- هل أنت مجنون، سيقضي عليه الدب قبل أن يقتله.

انتشر الدخان، وأخفى الوجوه، لم يستقروا على رأي في إنقاذ الشاب، أزدادَ صوت عواء الذئاب في الجبل، فادركوا أن الوقت قد تأخر. توقف الحديث مع اختفاء الدخان، ورحيل الزوار من منزل الشيخ.

المطر

أنهمرُ فوق الجبال والوديان، أطرق النوافذ والأسقف، وعندما أغضب، يساندني الرعد والبرق، ويضربون في كل الاتجاهات، يهابني البشر ويركضون ليختبئوا من قطراتي عندما أنهمر عليهم. وحينما تشتد غيومي أمطر بغزارة، وتفيضُ الجداول وتجرف التراب. وأهدم البيوت في طريقي. وعلى الرغم من كل ذلك، فإنهم عندما أغيب عنهم يبتهلون إلى ربهم، ويدعون بشغف أن أمطر عليهم من جديد، فبمائي ترتوي مزارعهم، وتتدفق الينابيع المتوارية بين الصخور.

في الليالي الحالكة حيث يلتفُ الناس أمام المدافئ والمطر، أنهمر بشدة فوق سقوف منازلهم، وأسيل بغزارة على النوافذ، ودابيرة في الداخل تحكي لأحفادها حكايات أسطورية وقصصاً متنوعة. وهم يستمعون بانتباه إلى كل كلمة تنطقها بصوتها المتهدج، وهي تمسحُ فمها بين حين وآخر، تحاول أن تتذكر تسلسل الأحداث، وقد جفّ حلقها من الكلام، تلتفت بين حين وآخر إلى الموقد والنار مازالت تتأجج. كان القلق يستبد بها خوفاً على حفيدها التائه في العراء، تذكرت حكاية روستم زال وبدأت تقصها عليهم بتأنٍ.

ذات يوم أقام الملك كيخسرو حفلة في قصره الكبير، حضرها مجموعة من الفرسان والأبطال الأشداء مثل تووس وكودرز وكوستهم وبورزين، كلهم كانوا يحتفلون ويستمتعون بوقتهم. فجأة دخلَ عليهم رئيس الحظائر، وعلى ملامح وجهه يتبدى هلع كبير، قال متلعثماً:

- يا مولاي، ظهرَ حيوان كبير في الخلاء يشبه الحمار الوحشي جسده بلون الذهب، يأكل كل ما يأتي أمامه، ينهش الأغنام بأنيابه الحادة، ويلتهم حتى

الأحصنة.

قال الملك:

- أنا متيقن أن هذا الحيوان ليس حماراً وحشياً، فهو لا يستطيع التغلب على الحصان، ربما يكون أيكوان الوحش الذي يعيش في الأطراف. ثم التفت إلى الحاشية وقال: من يستطيع أن يتغلب هذا الوحش الشرس؟

سكت الفرسان ولم ينطقوا بكلمة، فهم لا يستطيعون مواجهة هذا الوحش، فقال الملك: لا يستطيع أحد مغالبة هذا الوحش الفتاك سوى روستم زال.

كتبَ الملك رسالة إلى روستم وبعثها اليه. كتب فيها:

(أيها البطل المغوار، أيكوان الوحشي هاج كالفيضان، هجمَ علينا اليوم، إذا لم نواجهه، ونقضي عليه سوف يهجم على المملكة. أطلب منك أن تحضر إلى هنا بأقصى سرعة) .

عندما وصل البريد إلى روستم وقرأ رسالة الملك، أعدَّ عدته وركب حصانه الذي يدعى رخش وانطلق بسرعة يغالبُ الريح ليل نهار حتى وصل إلى قصر الملك. استقبله الملك وحكى له كل شيء عن الوحش وأعطاه كل المعلومات عنه. في اليوم التالي ذهبَ روستم وحده من دون أن يصطحب معه الجيش وتوّجه إلى مغارة الوحش.

قطع روستم مسافة طويلة، وسار أياماً عدة حتى وصل إلى الكهف. أراد أن يستريح قبل مواجهة أيكوان، وفجأة مر الوحش من أمامه كالريح، فصعد حصانه رخش وطارد الوحش ليومٍ كامل. هرب الوحش، وظل روستم يلاحقه في الجبال

والوديان، ولكنه اختفى من أمام عيني روستم، تؤقف حصانه عن الجري، وهو يتنفس بصعوبة، فثرجل روستم الذي كان منهكاً عنه، أكل طعامه تحت شجرة، واستلقى ونام، بعد مدة ظهر الوحش أيكوان من جديد ، ووقف فوق راس روستم. سمع روستم صهيل حصانه، أراد أن ينهض من مكانه، لكن الوحش انقضّ عليه بسرعة، وحمله عالياً فوق رأسه، عندها علم روستم أن نهايته قد حانت، همس لنفسه: «كم كنت غبياً! لماذا لم أنم في الكهف وأختبئ عن أنظار الوحش!» عندها قال الوحش:

- أراك قد جننت من الخوف وتهذي مع ذاتك، كنت أظنك ذكياً، أخبرني لماذا تتعطش لسفك الدماء والقتل؟ أراد روستم أن يردّ عليه، قاطعه الوحش: أخبرني الآن بسرعة، أين تريدني أن ألقي بك، في الصحراء أم أرميك في البحر. عندها فكّر روستم في ذاته، إن أي شيء سيقوله، سوف يقوم الوحش بتنفيذ عكسه، لربما سينجو إن رماه في البحر، قال الوحش: هيا اختز بسرعة، فقال روستم: ألقني في الصحراء.

ضحك الوحش، وحمل روستم مثل الريح إلى البحر وألقاه فيه. قهقه الوحش ضاحكاً ثم رحل، التمت أسماك القرش الجائعة حول روستم، وحاولت أن تنقض عليه كالذئاب الشرسة. أخرج روستم سيفه وبدأ يهاجمها واحدة تلو الأخرى.

سبح روستم إلى الشاطئ، ووصل إلى اليابسة، هناك وجد أغراضه ملقاة، إلا أن حصانه رخش لم يكن موجوداً. حمل عدّته وتوجه عائداً إلى مكانه. من بعيد شاهد جيش أفراسياب العظيم يخيمون في الصحراء، شاهد حصانه رخش مربوطاً إلى جوار خيمة، تسلل روستم إلى المخيم وصعدَ حصانه وأخذ باقي أحصنة أفراسياب، هرّع راعي الأحصنة إلى أفراسياب، وأخبره أن روستم قد

سرق خيوله، فغضب أفراسياب وطلب أن يهجموا على روستم، فانطلق الجيش خلف روستم، وأخذوا معهم الفيلة الضخمة، عندما علم روستم بمهاجمة الجيش له، ترك الأحصنة وعاد يقاتلهم ببسالة. أخرج مطرقته وسيفه وهجم على جيش أفراسياب واحداً تلو الآخر، وعندما علم أفراسياب بعدم مقدرته على التغلب على روستم ولى هارباً مع عدد من حراسه، فاستولى روستم على معدات الجيش والفيلة وأخذها عائداً. في الطريق عندما وصل إلى إحدى الينابيع، سمعَ صوت الوحش يجول في المكان، التفت روستم فوجد الوحش أيكوان يقف خلفه. صاح الوحش قائلاً:

- يبدو أنك ماتزال حياً! كيف هربت ونجوت من أسماك القرش المتوحشة؟

قال روستم:

- لم أهرب، وإنما قاتلتهم، هزَمتهم.

قال الوحش:

- استعد للموت إذن.

بسرعة ألقى روستم حباله حول عنق الوحش وضرب رأسه بمطرقته، فوقع أيكوان الوحش على الأرض. تذّكر روستم عندما أخبره الملك كيخسرو أنه إذا لم يقطع رأس الوحش، فإنه سوف يحيا من جديد. قطع رأس الوحش، فراح الدخان يتصاعد من رأسه، ويتدفق منه دم أخضر.

عاد روستم إلى المملكة ومعه الغنائم والفيلة. وعندما علم الملك بانتصار روستم، طلب أن ينيروا الفوانيس ويقيموا المآدب والحفلات بمناسبة انتصار

روستم. توجه الملك بنفسه لمقابلة روستم، وأبقاه في ضيافته أسبوعين كاملين ثم أكرمه الملك بصناديق من الذهب وعاد إلى بلده.

كانت خجاو تسترق السمع إلى حكاية الجدة، قالت لها والمطر مازال ينهمر بغزارة في الخارج:

- حكايتك هذه التي كنت تقصينها على هلمت، هي من جعلته يندفع إلى الجبال بحثاً عن وحش مثل روستم.

الصيف

الجبل

لم أرَ ولداً عنيداً يتحدى وعورة دروبي ووادياني وصخوري، مثل ذلك الولد الذي مازالت لحيته لم تكتمل. سحنته قاسية كصخور البازلت، يبدو أنه ولدٌ من صلبي، ولا يعرف أرضاً يرتاح فيها سوى حضني. لم يخلف وعده، ولم يعد أدراجه إلى القرية الكائنة أسفل الوادي، وإنما استمر عازماً على اقتفاء أثر الدب. لا أوافقه الرأي، فأين الرجولة في قتل حيوان لا يفقه؟ ولكنه يصرُ على تنفيذ عهده الذي قطعه أمام البشر.

يسير وعيناه تجولان بين الصخور، يتفّقد مكان خطواته، يبحث عن دب بني لربما أختبأ بين إحدى الطيات أو الشقوق، أدمى قدميه من السير المضني، يشم عبق الزهور ويستظل بظلال أشجار البلوط ويستلقي على الأعشاب، تحومُ حوله الطيور ويرقبه النسر بنظراته. هذا الكائن الذي استوطن الجبل وألف طبيعته لم تبرد همته، وهو يبحث عن ذلك الكائن المختفي في مكان ما في أتون هذا الجبل الممتد.

أما في القرية أسفل الوادي، فكانت القرية النائمة تستيقظ كل صباح على صياح الديك، ويتساءل أهلها: «ماذا حل بهلمت الذي لم يعد إلى هذا الحين»؟ ذلك الموضوع الذي أصبح كالعكلة التي يقطفونها من أشجار القزوان لا يفارق ألسنتهم وهم يسردونه في كل مجلس، وفي الليلِ تحت نور الفوانيس الخافتة يحكي الرجال لنسائهم عن جنون هلمت، فتحكي النساء لبعضهن بعضاً عن ذلك العنيد. بعضهم كان يسخر منه، ويقول إن الجن قد تقّمصه.

أما شاه كول فإن القلق كان يأكلها، فهي لا تعرف مصير حفيدها، تواصل الليل

بالنهار جالسة إلى النافذة المطلة على الجبل، تشتمُ كاردو كل مرة، لأنها قنعها أن تسمح له أن يذهب ومن ثم يتركه وحيداً حيث لم يستطيع مجاراته في التغلب على صعاب الجبل.

في الأعالي كان هلمت مايزال يصارع المنحدرات، ويحاولُ بلوغ قمتي، كنت أراقبه بتأنٍ، يعبر الجداول ويقفز بين الصخور ولا يخلد إلى الراحة، يرى الأفاعي تزحف تحت قدمه ولا يبالي، يستمر في المسير، يرى الخنازير تقفز إلى مقربة منه محاولة مهاجمته، إلا أنه يجتازهم من دون أن يعيرهم اهتماماً، كل ما كان يبحث عنه هو دبه المفقود في أي بقعة من ذلك الجبل الممتد.

خرير الماء يتناهى إلى أذنه، يستلقي لحظات، ثم ينهض، ويغسلُ وجهه ويستمر في السير، ببندقيته التي لم تفارق كتفه رغم التعب، كان على أهبة الاستعداد لمواجهة الدب حين ملاقاته، صوت العصافير فوق الأشجار يطرب أذنه، السماء صافية والنور يتغلغل بين الأشجار ليمنح طريقه الوعر الدليل ليذهب إلى أبعد مدى في هذا السفح الممتد، أوراق أشجار الجنار التي تملأ المنحدر تهبُ روحه الطمأنينة، وتشعره أنه ليس وحيداً وتمنحه القوة؛ ليستمر في مسيره من دون كلل، ليصل إلى ما يصبو إليه.

مع حلول المغيب كان يعلم أن المواصلة في الطريق الوعرة ستكون مغامرة غير محمودة العواقب، وعليه أن يستسلم إلى الظلام، وينتظر بزوغ الشمس ليواصل بحثه. فكان يجد لنفسه مكاناً يرقد فيه في أمان بعيداً عن الضواري والحيوانات المفترسة التي يعج بها الجبل، فينزوي في كهف ليرقد فيه ويرمي جسده المنهك، أو يتسلق شجرة متفرعة ليتمدد على فروعها بعد أن يقطع بعض الأغصان ليجعل منها مكاناً مستوياً يستطيع أن يقضي فيه ليله، ليواصل في

الصباح. حتى في الليالي لم يتوقف عن البحث عسى الدب يمر من أمامه. أما القرية وأهلها فقد ابتعد عنهم وعن جدالهم الحاد والمستميت ليثنوه عن قراره في البحث اللامجدي، ويعود أدراجه إلى أحضان القرية، ولكنهم أدركوا أنهم يحاورون صخرة صماء لا تسمع ولا تذعن، إلى أن ملوا من النقاش وعلموا أنه لا جدوى من الكلام مع هذا الشاب الذي ركب العناد راسه، ويصرُ على تنفيذ وعده، فتركوه وشأنه يتجول في الجبال كالتائه. الشخصان الوحيدان اللذان كانا قلقين من أجله جداً هما: جدته، وحبيبته نيركز. كيف تقضيان لياليهما، وتنامان على الوسائد الناعمة، وهو يرقد فوق الحجارة الصلدة!

النهر

كنت أتجمع من كل الجهات، وتأتيني الينابيع والجداول لتصب في حضني الكبير الذي يسير كالأفعى المتموجة بين الصخور الشاهقة أعبر الجبال الحادة وأنطلق منحدراً بشدة إلى الجنوب لأصب في مجرى عريض.

مات الكثير من البشر وهم يقفزون إلى أحضاني لا يبالون بشدة برودة مائي التي تجمد الأوصال، وقوة انجراف الماء التي لا تتوقف للحظة، وقد تصطدم الرؤوس خلسة بالجرف في أعماقي القليلة، ولا يجدون الجثث إلا بعيداً، وبعد أن يهدأ هدير الماء.

لخطورتي الكبيرة في جرف الناس، صنعوا فوقي جسراً خشبياً في الطرف القريب من جبل هلكورد، وأصبح الجسر طريقاً للمسافرين، وقد قدَم الرجل الأشقر وبنى بمساعدة أهل المكان مخفراً واسعاً كأنه ثكنة جاهزَة لقواتهم. كان العمال يكسرون الحجارة على شكل مربعات ويضعونها فوق بعض ليَعلو البنيان.

وفي المخيم الذي شيّده الرجل الذي يدعى ريكسون، كنت أرى قفصاً من الخشب، وضعَ فيه دب صغير اصطادوه من الجبال العالية، كان الدب لاينفك يزعق باستمرار، وكأنه يطلب النجدة من والدته.

كان ريكسون يأتي مراراً من عمله، ويقدم له الطعام، ولكنه يأبى أن يأكل، كان يريد الخروج من خلف تلك القضبان التي تحاصره. أما ريكسون فقد كان يخاف من أن يطلق سراحه، فيفتك بالناس. ذات يوم وصله البريد من أربيل من قشلة كركوك، يخبرونه فيه أنهم وافقوا على جلب ذلك الدب ليرسلوه إلى لندن، كل ما عليه هو أن يوصل الدب إلى مشارف كركوك. كان ريكسون في غاية الفرح لأن

اسمه سيصل مسامع الملك عندما يعلم أنه قبض على الدب ليهديه إليه، سيعلى ذلك من مقامه وشأنه في القصر.

لأن الدب سوف يعبر مسافات طويلة، قرر أن يصنع له قفصاً كبيراً من الحديد يتحمل الطريق. وانتظر إلى أن يحين السفر، حينها يضع الدب في القفص الجديد.

يوم وصول الرسالة وصل شيء آخر إلى المنطقة لم يكن في حسبان أحد، ولا حتى ريكسون نفسه. الذي طلب أن يرسلوا له مركبة من أربيل لينقل القفص بوساطتها إلى كركوك.

إلى جوار المخفر المطل على النهر كان هناك جسر قديم بني قبل سنوات عديدة، وقد تهالكت جوانبه التي كانت تفضي إلى الطرف الأخر.

كان العمال منشغلين بأعمالهم حينما اقتربت الدبة الأم من الجسر، وعبرت الجسر متوجهة إلى مصدر صوت طفلها. لم تبالِ بالخطورة التي تحوق بها وهي تقترب من القفص.

فوجئ العمال بوجود دب بني ضخم بالقرب من القفص، وهو يحاول تخليص الدب الصغير. دبَّ الخوف في نفوس الجميع، وارتعبوا. رموا ما في أيديهم من الحجارة، وحملوا المعاول والبنادق لحماية أنفسهم. وجه بعضهم البنادق إلى الدب الضخم، وحاولوا أن يطلقوا النار عندما صرخ الإنكليزي في وجههم بحدة (نو .. نو) فتوقف العمال.

طلب منهم أن يبتعدوا إلى الخلف. ثم أمرهم أن يقبضوا عليه عوضاً عن أن

يقتلوه، فهذا الدب ثمين وسوف يرسله مع صغيره إلى بريطانيا بذلك ستكون الهدية أكبر.

كان بين العمال هندي يعرف عنه أنه صياد شهير، ويعرف كيف يتعامل مع الحيوانات، ويلقي القبض عليها. فأمره ريكسون أن يضع خطة بسرعة، وسوف يساعده في الإمساك به.

فكّر الهندي بالقفص الجديد الذي صنعه، جلب قطعة لحم كبيرة ورمى اللحم في القفص. وتوّجه الهندي ومن معه من العمال يدفعون الدب ناحية القفص، إلا أن الدب خالف الأوامر وقفزَ على العمال وهاجمهم وجرح من بينهم عاملين، غير أن الهندي كان سريعاً في حركته فذهب وجلب الحبال ورماها حول رأس الدب ومن ثم التف حوله ليطوق الدب بها بسرعة، وساعده ريكسون ومن معه من العمال الذين استطاعوا أن يقيدوه بالحبال ويردوه أرضاً، فتوقف عن الحراك. قربوا القفص الحديدي إليه ودفعوه بالخشب إلى داخل القفص، وجروا الحبال وحلوا من حوله. كان ريكسون في غاية السعادة؛ لأنه اصطاد أكبر دب في هذه المنطقة.

ذلك اليوم انتشر خبر إلقاء الإنكليزي القبض على دب فخم في أرجاء الوادي، وبدأت الألسن تتناقل الخبر وتخبر أن الإنكليزي سيرسل الدب عبر البحار إلى لندن.

في الليل وبينما الإنكليزي غارق في السكر من الحفلة التي أقامها لنفسه. قدمَ من الجانب الآخر للجسر شاب بملابس رثة يبدو أنه قد اجتاز الجبال والوديان، وهو يسيرُ من سفح إلى آخر، و قد تناه الى مسامعه ان الانكليزي قد قبض على

الدب, وعندما رى الدب من الجانب الآخر من الجسر، توقف وألقى نظرة عليه، غمرته السعادة؛ لأنه وجد ضالته اخيراً، فقال بصوتٍ مرتفع: «إنه الدب الذي أبحث عنه، لن ترسله إلى أي مكان إنه لي وحدي ولن يقتله أحد غيري». كان يفكر في أن يطلق سراحه ويدعه يعود إلى الجبال، وهناك سوف يقضي عليه كما قسم أمام أهل الوادي.

عبر الشاب الجسر المتحرك، وقفز إلى الجانب الآخر. كان الظلام قد خيم ولم يبقَ في المخيم سوى الهنديين اللذين يعملان عند الإنكليزي، وقد غرقا في النوم بعد صراع قاتل مع الدب الذي استنزف كل طاقتهم. أما الإنكليزي فقد نام نوماً عميقاً جراء السكر.

لم يكن القفص مقفولاً بإحكام، كان مربوطاً بحبل، فلا أحد يستطيع الاقتراب من القفص وإخراج الدب؛ لأنه سوف يفتك به. فك الشاب الحبل، وفتح باب القفص مطلقاً سراح الدب، وهو يشاهد غريمه لأول مرة. دفعه بهدوء إلى جانب الجسر وأطلق له العنان ليذهب، عندها خنخن الدب بصوت عالٍ وهو على الجسر، استيقظ الهنديان وحملا البنادق يصوبونها ناحية الدب وأطلقا النار إلا أن الصوت أفزع الدب الذي فرَّ بسرعة نحو الظلمة واستطاع الاختباء بين الأشجار والولوج إلى سفح الجبل ثم اختفى. أما الشاب الذي فكّر أن الهنديين لن يتركا الدب وسوف يطاردانه، عبر الجسر إلى جانب الدب وأضرم النار في حبال الجسر، فلم يستطع الهنديان الاقتراب وعبوره.

التفت الشاب ناحية الدب، لم يجده في مكانه، اختفَى بسرعة في الظلام، كانت البندقية في يده، وانطلق يعدو إلى الجبل في محاولة اللحاق به وقتله قبل أن يفر منه ويختفي عن أنظاره نهائياً.

الليل

الظلام صفتي، أمحو النور وأغشو الأبصار، فيظهر من كان يخشى الظهور عند الشروق. وتعود إلى الحياة الحيوانات المفترسة مثل الضباع والذئاب وقطاع الطرق. يهابني الناس، فيحتمون بمنازلهم، ويشعلون الفوانيس ليطردوني، ولا يعلمون أن الكون كله يستكين في الظلام. وعلى الرغم من ذلك يركنُ إلي من هو وحيد، ليغرق في آهاته من دون أن تلاحقه العيون.

حينما هرب الدب من ذلك الإنكليزي، غابَ في الظلام واندّس بين الحشائش وعرف كيف يختفي عن الأنظار. سارَ هلمت إلى أبعد مدى وهو يلاحقه، بعد أن هرب إلى الجبل بمساعدته. أحسَّ أنه ضائع في الشعاب، وأضاع الجهات بعد أن خيم الظلام. لم يبال بالليل والحيوانات المفترسة المتربصة، كان جل اهتمامه هو أن يجد الدب، وألا يسمح له أن يضيع منه مرة أخرى. أصابه الجنون، كيف اختفى بهذه السرعة. راحَ يسارع الخطى ويتخبط بالحصى.

سمع بين الأجمات حفيف الأوراق وتكسر الأعواد، ظنّ في قرارة نفسه أن الدب يحشر نفسه فيها. كان القمر هلالاً. فلم يستطع رؤيته. صوبَ البندقية واقترب بخطوات وئيدة. لوهلة سمع صوت حفيف الأعشاب من حوله بكثافة، فقد ظنّ أنهم مجموعة من الضباع، لكنهم كانوا مجموعة من قطاع الطرق، وجهوا بنادقهم نحوه قائلين:

- أرمِ بندقيتك.

كانوا مجموعة من (جتة) قطاع الطرق الذين يعيشون في الجبال. غلبته كثرتهم، فلم يقدر على مواجهتهم، فتشوا جيوبه، فلم يجدوا معه ما ينفع سوى

البندقية، أخذوها منه، وشدوا وثاقه واقتادوه إلى وكرهم، تملكه الحزن، هاهو الدب يبتعد عنه مرة أخرى. اقتادوه إلى كهفهم، كانت النار تبدد ظلام الليل في داخله. كان هؤلاء القوم معروفين بعملهم الوحيد، وهو مراقبة العابرين في أسفل الوادي، يعترضون طريقهم، ويجردونهم من أموالهم وممتلكاتهم، مُتذرعين أنهم يمرون في منطقتهم ويتخطون حدودهم الخاصة.

كان زعيمهم سردار ينفثُ الدخان من غليونه، وهو متكئ على وسادة عالية، استغرب من وجود هلمت، وتساءل عن سببِ قدومه إلى هذا المكان في مثل هذا الوقت، فأخبرهم بقصته وبحثه عن الدب؛ ليأخذ بثأره منه، صرخَ أحدهم منتفضاً من مكانه، وكان يدعى قادر من الأصدقاء المقربين لسردار:

- أنت الذي حررت الدب من الإنكليزي؟.. هزَّ هلمت مؤكداً.

قامَ الجميع من مكانهم مهللين لهذا الرجل الشجاع، وأبدوا إعجابهم بمقدرته على مواجهة رجال الإنكليز.

قدم له الزعيم قطعة من اللحم المقدد. وطلب إليه، أن يجلس إلى جواره قائلاً:

- أنت رجل شجاع، لماذا لا تنضّم إلينا. نحن في حاجة إلى رجل مثلك، وسوف تشاركنا في الغنائم التي نحصل عليها.

أوضح له هلمت أن هدفه الوحيد هو أن يقبض على ذلكِ الدب قبل أن يخطو أي خطوة أخرى. قال قادر:

- سمعت أن الإنكليزي سوف يرسل الدب الصغير غداً صباحاً قبل الفجر إلى كركوك، مُدعياً أنه سوف يرسلهُ كهدية إلى ملكه.

حملق سردار في هلمت ثم قامَ من مكانه بغتة، قائلاً:

- ونحن لن ندَع ذلك يحدث، إن هلمت أحق في أن يقبض على هذا الدب، سوف نقطع طريق المركبة غداً ونأخذ الدب الموجود في القفص.

لم تبدر عن هلمت أي ردّة فعل. فكّرَ في عواقب مواجهة هؤلاء الإنكليز، وعلم أن الأمر لن يمر بسلام. إلا أن زعيمهم أصر أن يأخذ الدب من ذلك الأشقر.

في فجر اليوم التالي. كنت أتوجه بتأنٍ نحو الطرف الآخر من العالم. ألملم أطراف ثوبي، ينازعني الصباح ليحل مكاني، لكنني رأيت ما حدث.

كان هلمت يقف جانباً. حينما نزل قطاع الطرق مع بنادقهم؛ ليضعوا حاجزين من الرجال. الرجال في الحاجز الأول سيواجهون السائق مباشرة. فإن استطاع الفرار منهم، فلن يستطيع الفرار من الحاجز الثاني على بعد مسافة أخرى.

بدا من خلال الظلمة نور خافت لضوء مركبة تتوجه نحوهم والغبار يتطاير على جانبيها. وبسرعة وجه الرجال بنادقهم إلى السائق يطلبون إليه التوقف. فأدرك السائق أنهم قطاع الطرق. وبدل أن يخفف السرعة داس على الفرامل وزاد من سرعة المركبة. فأطلق الرجال الرصاص بغزارة. انتابه الفزع ما إن اجتاز المجموعة الأولى، حتى تصّدت له مجموعة أخرى من الرجال يطلقون الرصاص بغزارة في وجهه. فلم يستطع السائق أن يتمالك نفسه ويسيطر على المقود، استدار بعيداً محاولاً إيجاد ثغرة، فمالت المركبة ناحية الوادي وخرجت عن الطريق، وانزلقت الإطارات نحو الوادي، وراحت المركبة تتدحرج حتى أوقفتها شجرة تين في الأسفل. حينما وصلوا إليه، كان يلفظُ أنفاسه الأخيرة، ودمه يختلط بأوراق التين، أما القفص المصنوع من الخشب، فقد تكّسر إلى قطع، وراح

الدب الصغير يتجول مترنحاً بين الأجمة لا يعرف ماذا حدث له.

طلب سردار من هلمت أن يطلق النار على الدب ويثأر لنفسه، فانصاع لقرار الرجل وصوّب البندقية نحو الدب. حدق فيه طويلاً، ولم يستطع أن يضغط على الزناد، كان صغيراً للغاية. فتراجع من مكانه وترك الدب يختفي بين الأشجار.

ولم يكن من الرجال إلا أن ينسحبوا إلى الجبل، واختفى هلمت بين الأشجار.

الغليون

بعد أن مجّ النفس الأخير من التبغ المحشور بداخلي، أعادني الرجل إلى جعبته وركب حصانه مع قافلة كانت تريد عبور الوادي. لم يدرك أنها آخر قبلة بيننا، ولن ألمس ثغره ثانية. على الرغم من درايتهم أنهم داخلون في وادٍ خطير، لم يصبهم الهلع حينما هبطت من الجبل مجموعة من الرجال مُدججين بالبنادق ليقطعوا عليهم الدرب. طلبوا منهم أن يخرجوا ما في جيوبهم، عليهم أن يدفعوا جزية مقابل اجتيازهم الطريق. لم يستغرب العجوز وأعطاهم القليل الذي يمتلكه. ثم رأى زعيمهم الذي يدعى سردار الغليون المحشور في سرواله، طلب منه أن يريه إياه، فدُهش من الزخارف المنقوشة على حوافه. نزعه من يد العجوز، ثم سمحَ لهم بعبور الطريق. وضعني زعيم قطاع الطرق في جيبِ سرواله، وعاد يصعد الجبل.

أصبحت ملكه، وبدأت أتجول معه من مكان إلى آخر، كلما جلس في مكان يخرجني، ويحشوني بالتبغ وينفث دخاني في وجه الجبل. كان يتبعه ما يزيد على عشرين رجلاً من القرى المجاورة. يعيشون على هذا العمل. ألازمه في حله وترحاله. يهاب منه الناس لخشونته وجبروته، يحدق بعينيه في عين غريمه، وهو يضعني في فمه، وينفث الدخان في وجهه. فيشعر بالرعب.

في اليوم الذي هاجموا فيه المركبة الإنكليزية، وقتلوا السائق وهربَ منهم الدب، كان سردار يدخنُ بشراهة، يتملكه القلق وتدور في خاطره الهواجس من ردة فعلهم، كان يعلم أن ما ارتكبه لن يمر بسلام. لم يكن يتوقع أن تلك الآلة الضخمة التي تدعى المركبة سوف تنحرف عن الطريق وتقع في الوادي ويقتل

من فيها.

صباح اليوم التالي قدمَ الآغا ميران إلى الجبل تتبعه حاشيته، هزَّ رأسه يعاتبه على ما أقدم عليه وطلب منه أن يسلم نفسه إلى القوات الليفي الانكليزي، لأنهم سيحشدون جنودهم ويهاجمونه، فالإنكليزي قد أبلغ عنهم وسوف يأتي الجيش عاجلاً أم آجلاً. قام سردار من مكانه غاضباً:

- كيف تستطيع أن تسلمني إلى هذا الغريب.

لم يرد الآغا، نكسَ رأسه وصمت، ثم استطرد بحدة: (يا له من عار! أموت قبل أن أسلم نفسي إلى ذلك الإنكليزي). قرر أن يقاومهم مع رجاله، وأنه لن يخضع لذلك الأشقر الذي جاء يعيثُ في الجبال.

بعد مغادرة الآغا، اجتمع أتباعه حوله صامتين. يرنون إلى شفتيه وهو ينفثُ الدخان، ويحدق في عيونهم ليستطلع دواخلهم، وهل سيقفون معه في وقت الشدة، حملوا بنادقهم ورفعوها عالياً يستنكرون طلب الأغا، مُعلنين أنهم لن يقبلوا بتسليم قائدهم إلى هؤلاء الغرباء، ولو أدى ذلك إلى محوهم عن الوجود.

لم يمر يومان على الحادثة. حتى تقدم رتل من قوات الليفي الإنكليزي إلى الوادي، يبحثون عن العصابة المتمردة. علمَ سردار ومن معه أن المهندس قد أرسل في طلب الجنود من أجل مساعدته لوضع حد لقطاع الطرق الذين يقفون حائلاً دون إتمام عمله.

ذهش سردار وجماعته من العدد الهائل للجنود ومعهم الإنكليزي وهم يستعدون للصعود إلى الجبل للقضاء عليهم. إلا أنهم عزموا على ألا يخضعوا،

وسيكون الجبل سندهم. غادرت العوائل التي تقع منازلها إلى مقربة منهم. أما الرجال، فقد احتشدوا وأعدوا أنفسهم لقتال فتاك.

نشبت حرب عظيمة في الوادي. ولعلع صوت الطلقات النارية في أرجاء السفح، يرجّع الوادي أصداءها. كان عدد البنادق والرجال هو الذي سيحسم المعركة. تقدم الجنود بصعوبة إلى السفح. أما رجال سردار الذين قُتل عدد منهم فلم يعد العتاد يكفيهم. أصيب سردار برصاصة في رأسه، وقع على أثرها على جبهته، فزعَ الرجال من ذلك المشهد واشتد حماسهم للانتقام لزعيمهم. إلا أن قادراً؛ الرجل الثاني بعد سردار تدارك الموقف؛ إذ علم أن استمرارهم في هذا القتال لن يشفى غليلهم وسوف يهلكون لا محال، ويجب أن ينتقموا بطريقة أخرى. أخرج قادر الغليون من سروال سردار الذي تجمد في مكانه، ليبقى لديه رمزاً وذكرى، حمل بندقيته وطلب من الرجال أن ينسحبوا بسرعة إلى قمة الجبل، ويتفرقوا في الأرجاء حتى يصعب اللحاق بهم.

وقعتْ في يد قادر الذي توّعد بالانتقام من قاتل زعيمه، وهو منهك الأنفاس يحاول تسلق الصخور، والرصاص يئزُ من حوله.

القرية المجاورة

أنا القرية الوحيدة التي في تقع في هذه البقعة المخفية التي قلما يزورها الناس لبعدها عن المدينة ووقوعها في وادٍ ضيق، لا يصلها إلا القلة من الرحالة، ومن يغادر هذه القرية لن يعود إليها مرة أخرى. يوجد فيها مجرى ماء ينبع من الجبل وينحدر بشدة إلى الأسفل، تحيط بها أشجار الجنار من طرفيها وتكاد تحجبها، حتى إنه من الصعب المرور من خلالِ سوقها الفارعة والمنتشرة بغزارة. كان أهلها يأكلون ثمار تلك البساتين المحاذية للجدول الصغير حيث يسمع خريره القوي من على السفح. الرعاة يسوقون قطيعهم في أطراف الجبل يتسلقون سفوحه بحثاً عن المرعى. في الشتاء يقطعون أشجار الجنار الكثيرة، وماتلبث تنمو مقابلها شجرة أخرى، تمنحهم أغصانها الدفء في هذا الشتاء القارس إلى أن تمر بسلام، يتغذون على ما جمعته أيديهم من الجوز واللوز ومشتقات الماعز من الألبان.

المسافر الذي يمر بهذه القرية سوف يسحره جمالها وطبيعتها الخلابة وجبالها التي برزت طياتها الملتوية والحادة. والمياه التي تنبع من بين شقوقها في كل حدب. وما إن يستريح من رحلته المضنية حتى يستكين إلى هذه الحياة الخالية من أي شيء زائف ومصطنع ويفضل البقاء فيها لأيام لأنه يعرف ما إن يغادرها فإنه لن يستطيع العودة إليها مرة ثانية، وستظل في ذاكرته، يروي عن جزيرة منفية وسط الجبال الوعرة القاسية.

من بين أولئك الضيوف، نزلَ من أعلى الجبل زائر غريب يحمل في جعبتِه قليلاً من الطعام، جمعه في طريقه وعلى كتفه بندقية. وقد علّت وجهه أمارات

الإرهاق والتعب، يبدو أنه صياد قد أضاع الطريق وتوغل كثيراً في الجبال والوديان، إلى أن وصل إلى هذا الطرف من الجبل.

في طرف القرية التي لا تتجاوز منازلها الخمسة، يوجد منزل هاوكار الذي كان يحمل الفأس في يده ويقطع الخشب ليعد الحطب للشتاء المقبل. ما إن رأى الزائر الجديد حتى ظنّه كائناً نزل من السماء، رمى الفأس وهرع إليه يستقبله بحفاوة، حمل متاعه، وأفسح له الطريق نحو الكوخ الذي تتصاعد منه رائحة البرغل الذي أعدّته زوجته. جلس على الفراش الناعم، شعر الشاب براحة كبيرة، وقال:

- من شهور لم أجلس وأرتاح هكذا.

هرع هاوكار إلى الداخل ليخبر زوجته أن هناك ضيفاً قدم عليهم، وعليه أن يذبح من أجله دجاجة، وخرج من الكوخ وفي يديه طاسة من اللبن والقليل من الجوز ووضعهما أمامه. كان السرور واضحاً على محيا الرجل، فهم في توق ليعرفوا أي اخبار جديدة عن العالم خلف الجبل.

ما إن أفرغ الشاب اللبن في جوفه وأخذ قطعتين من الجوز والتهمها، حتى تمدد على الفراش كأنه لم يغفُ منذ سنوات، كفارس عادَ لتوه من حرب ضروس. جلس هاوكار إلى جوار زائره من دون أن يسأله عن اسمه، لم يشأ أن يعكر مزاج ضيفه حتى لا يتذمر ويرحل عنهم فجأة. وقد يمر وقت طويل قبل أن يحضر شخص آخر إلى هذه البقعة النائية.

غفا الشاب للحظات وهو يسترق السمع إلى صوت خرير الماء وزقزقة العصافير والطيور المنتشرة. ولم يصحو إلا على صوت هاوكار وهو يخبره

بصوتٍ هادئ أن الطعام جاهزٌ. تغلغلت رائحة شوربة الدجاج مختلطة برائحة جدول الماء والبساتين لينهض على معدته الفارغة التي خوت لأيام من طعام جيد.

حينما فتح عينيه وجد مجموعة من الرجال والنساء والأطفال يحومون حوله، يسترقون النظر إليه، فما إن علم أهل القرية الصغيرة بوجود ضيف جديد حتى تركوا مافي أيديهم وتوجهوا نحو منزل هاوكار وهم يعاتبونه؛ لأنه لم يسمح لهم أن يستضيفوا الزائر أولاً.

كانوا ينتظرون أن يبوح لهم باسمه ومن أي قرية قد حضر، لكن هاوكار ما إن جلب الطعام الشهي ووضعه أمام ضيفه حتى طلبَ إلى الجميع أن يغادروا المكان، ويعودوا فيما بعد. ليتركوا الضيف يأكل الطعام براحته من دون خجل من تلك الأنظار المشدوهة.

امتثلوا للأمر وانصرفوا. شكّره الشاب وبدأ يلتهم الطعام بنهم. ومن ثم نزل إلى الجدول واغتسل في مائه، كان شعاع الشمس يتخلل وريقات الأشجار العالية ليضيف القليل من النور في الأرجاء.

عاد إلى الكوخ وجلس أمام هاوكار الذي وضع كأساً من الشاي أمامه، وراح يستفسر عن اسمه:

- كيف حال الجبال في الطرف الآخر، كاك؟

تردد الشاب مكملاً:

- هلمت... ادعى هلمت.

- كاك هلمت. سررنا بوجدك... ماذا كنت تصطاد في الجبال؟

قصّ عليهم الشاب حكايته وما حدث، الشيء الوحيد الذي لم يقصصه هو وعده بألا ينزل من الجبل ما لم يقتل الدب. تردد أحد الرجال:

- هاوكار.. إنه هلمت الذي سمعنا قصته من فاه كاك زامو.. هل تتذكر؟

تفرّس هاوكار متذكراً:

- نعم تحدث زامو عن هذه القصة فيما سبق.

اتّسعت عينا هلمت دهشة، وهم يذكرون اسم زامو، إنه أحد أهالي قريته، ثم أخبروه أنه قبل أربعة وأربعين يوماً من الآن زارهم رجل يدعى زامو. كان في طريقه ليعبر الحدود إلى البلد الآخر. وأنه قصّ عليهم عن شاب يدعى هلمت أقسم ألا ينزل من الجبل ما لم يقتل الدب. أحسّ هلمت بالحرج الشديد وهو يستمع إلى ما يتفوهون به. فهو لم يخبرهم عن وعده أمام الناس. ولكن هل يصح ذلك. لقد اجتاز جبال ووديان وجداول عدة حتى يصل إلى هذه القرية النائية ليستريح فيها وها هم في أشد البقاع بعداً عن العالم استمعوا إلى قصته، فإلى أين يولي وجهه. لم يصدق أنه قد وجد مكاناً يأوي إليه، وها هو أمام هؤلاء الناس، وقد خالف وعده ونزل إلى القرى. ولكن أهل القرية لم يهتموا بتلك الوعود التي قطعها، فهم لم يصدقوا أن يزورهم شخص آخر بعد مرور أربعة وأربعين يوماً من آخر زيارة لرجل كان يدعى زامو. ولكنهم كانوا في شوق إلى سماع قصته وكيف تتبع أثر الدب للانتقام منه. فلم يتهاون هلمت ويبخل عليهم في أن يقص عليهم حكايته كلها. استمعوا إليه وجالسوه إلى منتصف الليل ولم يدعوه يبرح مكانه، أقعدوه أمام أنظارهم يحيطون به ويصغون إلى أقواله عن

حالِ الأماكن التي زارها، ومايجري هناك خلف الجبل، إلى أن تعب هلمت وبدأ النعاس يتسلل إلى أجفانه. وقد شعر هاوكار بذلك وطلب إلى الناس أن يغادروا المكان ليدعوا الرجل ينام ويكملوا النقاش في اليوم التالي.

جلب له هاوكار الفراش والوسادة الكبيرة لينام، وافترش الأرض إلى جوار ضيفه لينام إلى مقربة منه. ليلبي أي حاجة قد يريدها في الليل. ولكن عندما استيقظ صباح اليوم التالي لم يجد ضيفه في مكانه، ظن أنه قد نزل إلى الجدول ليغتسل، ولكنه لم يجده هناك، وعندما عاد إلى مكانه وجد أنه قد أخذ بندقيته وجعبته ورحل بعيداً.

الكلب

يدعوني هارة، أسكن في قرية تقع على حافة جبل شيخادار في الجهة الشمالية، عضضت البشر مرتين في حياتي. مرة عندما ربط الأطفال ذيلي بحبل عندما كنت في شهري السادس، ومرة عندما هاجمت شخصاً غريباً اقترب من ماشية مالكي، وولى هارباً. أخرج مع مالكي خسرو عندما يدفع بالقطيع إلى السفح ليرعى وأنا أرافقه وأحميه من الضواري المنتشرة في الجبل.

خسرو شاب، لتوه نبت الشعر في ذقنه، مطيع، يحبه أهل القرية؛ لأنه لم يؤذ أحداً في حياته حتى بكلمة، يبتسم لأي شخص يصادفه ويحاوره، ولكن منذ أن غابت أميرته، أبعد عنه الثلج تلكما العينين، اختفت عن وجهه تلك الابتسامة وهذا مالفت انتباه أهل القرية، وبات شخصاً منطوياً ومعزولاً أكثر مما سبق لا يهتدي إلى مخيلته سوى أن يأتي الربيع ليعبر تلك التلال البعيدة إلى الجهة الأخرى من الجبل، ويصل إلى حبيبته قُمرية.

مرَّ أكثر من أربعة أشهر وخسرو لا يعرف شيئاً عن قُمرية، تلك الفتاة التي رآها في حفلة زفاف ابن عمه الذي تزوج من فتاة من قرية ماران، ذهب مع أبناء عمه إلى هناك، وطلبوا يد الفتاة وفي القرية، أقاموا لها حفل وداع كبير حضره أهل القرية كلهم، يومها لاحظ خسرو تلك الفتاة الجميلة التي كانت تلبس ملابس وردية فضفاضة صفراء اللون ومُطرزة بالحلي، أذهله ذلك الجمال الذي كان يقترب منه، فهو لم يرَ سوى فتيات قريته اللواتي كبرن معه كأخوات، وكانت قريته هي عالمه الصغير الوحيد ولا يعلم ما بعده.

لاحظت قُمرية ذلك الصبي الغريب الذي فتح فمه فاغراً يحملق فيها بإعجاب

وكأنه لم يرَ فتاة في حياته، أصابها الخوف، وعلمت أنه ليس من أهل القرية، وأنه واحد من أهل العريس، وقبل أن تهرع عائدة إلى المنزل، اقترب منها الشاب اليافع مشدوهاً، ووقف أمامها يحدق فيها، ويعبر عن الجمال الذي أسره قائلاً لها:

- سبحان هذا الجمال! من أي عالم خلقت أنت، يا فتاة؟

دهشت قُمرية من صلافة الولد واقتحامه الموضوع مباشرة. لم تعرف كيف ترد عليه، لقد وقع في شباك حبها. خافت أن تأتي دابيرة لحظتها، أو يظهر أخوها هلمت المشغول في العرس، هلمت الذي لم يسمح لأي شاب أن يتغزل بجمالها.

لم تعرف كيف ترد على هذا الغريب الواقف كالأبلة أمام عينيها، إلا أنها في الواقع أعجبت بعينيه وخديه الممتلئين، ظلا للحظات يمعِنان النظر إلى بعضهما بعضاً، من دون أن يجدا مبرراً غير إعجاب أحدهما بالآخر، لأول مرة أحست قُمرية أن هناك شخصاً يهتم بها، يحيط بها، يهيمُ في جمالها. ذلك الإحساس دق قلبها، لم تستطع أن تطرد ذلك الزائر المحمل بالحياة لحظتها، ردَّت عليه بابتسامة ساحرة. ابتسامه كسهم اخترق قلب الشاب المشدوه بجمالها، تلك الابتسامة جعلته يعلم أن الفتاة معجبة به أيضاً. ثم هرَّعت إلى المنزل وأغلقت الباب من خلفها.

كنت أنا الشاهد الوحيد على هذا الحب، في تلك اللحظة رأيت مالكي في حالة غريبة لم أعهدها فيه، لقد أسرته تلك الفتاة وامتلكت قلبه، هاهو الآن ينكس رأسه ويسير من جدول إلى آخر ومن زهرة إلى أخرى يستعيد ذكرياته، ويشم الورود متسائلاً هل حافظت الفتاة على وعدها ولم تتزوج، و ما زالت في انتظاره.

عند عودتنا من القرية سارت أمامنا العروس على حصان أبيض مُزين بأجمل السروج ترتدي ثوباً أبيض وتغطي وجهها بشال أحمر لم تنزعه طوال الطريق، يسير إلى جوارها أهل العريس، وكان آخر من يمشي في موكب العروسة هو خسرو، يجرّ قدميه مرتجفاً متمنياً ألا يعود؛ أن يبقى في تلك القرية، لقد وقعَ في غرام تلك الفتاة، وسيطرت على عقله، هاهو يسير شارداً إلى جواري من دون قلب وعقل. حتى إنه نسيني ولم يلتفت إلى للحظة، نبحت في وجهه مراراً أريد أن أردعه وأعيده من شروده ليرى طريقه الوعر الذي يتعثر فيه إلا أنه للأسف بات بلا روح لا يسمع ولا يبصر، كيف أردّه إلى صوابه، قفزت أمام ناظره حتى يحسّ بوجودي إلا أنه لم يلتفت إلي حتى. يومها أدركت أنني فقدت مالكي إلى الأبد، عدّت وقد نكست ذيلي وأنا أجر قدمي ببطء.

لم يمر على زواج ابن العم سوى أيام قليلة، حتى دخل عليهما خسرو يبارك لهما الزواج ويفصح لابن عمه عن خلجات قلبه الذي تركه في يد فتاة تسكن في القرية التي جاءت منها زوجته، وأراد أن يستفسر من زوجته عن عائلة تلك الفتاة وأصلها، ومن تكن؛ لأنه منذ أيام لم يذق طعم النوم، والأسئلة تتطوح وتتراكم في رأسه ولن يجيب عنها سوى زوجة ابن عمه. عندها ضحك ابن العم ساخراً منه، فقال خسرو بامتعاض:

- لم لا؟ وقد حصلت على غنيمتك من تلك القرية، والآن، لا تبالي بالآخرين.

فلم يكن من ابن عمه سوى أن نادى زوجته ليستشيرها ويستفسر منها عن تلك الفتاة التي وقعَ خسرو في حبها. لم تكن العروس تعرف أحداً من أهل زوجها. كانت تشعر بالخجل وهي تستمع إلى خسرو يصف فتاة من قريتها. من خلال وصفه للفتاة وموقع منزلها من صفوف المنازل وشجرة التين المعمرة، أدركت أنه

يتحدث عن قُمرية أخت هلمت، فكان أول سؤال طرحه الشاب، الذي بات القلق يتملكه والخوف يقض مضجعه:

- هل لديها أبناء عم؟

عندها وقفت المرأة لبرهة قصيرة تفكّر في ذلك، كانت تلك اللحظة من أشد الأوقات صعوبة في حياة خسرو، وصل الخوف إلى قمتِه، كنت أسمع دقات قلبه وأنا أقف إلى جواره وقد احمّر وجههُ في انتظار الجواب، هزّت زوجة ابن العم رأسها بالنفي. فتنفس خسرو الصعداء، ارتاح وارتسمت على شفتيه ابتسامة عريضة، تحدّثت المرأة قائلة:

- لديها ابن عم واحد يدعى كاردو، وهذا قد تزوج من أختها الكبيرة خجاو.

كان الطريق مفتوحاً أمام خسرو، الآن سيطلب يد الفتاة ما دام لا يوجد عائق أمامه، فعندما يوجد أولاد عم، حتى شقيق الفتاة لا يستطيع الوقوف في وجهِ تلك الزيجة. فابن العم هو الأولى بها من غيره.

لم تمضِ أيام حتى توجه خسرو إلى قرية ماران مرة أخرى، جزّني من رأسي وطلب مني مصاحبته مرة أخرى. عبرنا الجبل ووصلنا إلى الطرف الآخر بعد يوم من رحلة شاقة، توجه مباشرة إلى منزل الفتاة. استقبله هلمت باستغراب وطلب منه الدخول، فالغريب لا يمكن أن يطرد، بقيت أنا في الخارج ارتجف من البرد، أحملق في القرية التي يرتفع الدخان من سطوحها إلى السماء، أنتظر بفارغ الصبر أمام الباب، في أمل أن يقبل أهل البيت خسرو صهراً لهم، كان أهالي القرية يحملقون فيّ باستغراب، وأنا أقف أمام باب ذلك المنزل، علموا أن هناك ضيفاً قادماً في مكان بعيد، لم أبالِ بهم جل ما كان يهمني خروج مالكي بابتسامة على

وجهه، ولكن للأسف ذلك ما لم أره، فحينما خرج خسرو من الباب كان واضحاً أن العائلة رفضت طلبه وخرج خسرو مُنكس الرأس، ولكن هلمت وقف لبرهة قصيرة أمام خسرو ورأى مدى حزنه، قالَ له هلمت بود:

- أخي كما ترى الفصل شتاء، الربيع القادم سيكون خيراً.

تلك الجملة زرعت الفرح في وجه خسرو الذي تأكّد من كلام شقيق الفتاة أنه لم يرفضه وأن الوقت لم يحن لتلك الزيجة، وسيكون لهم كلام آخر في الربيع القادم.

نعم لقد كان هلمت على صواب، فالوقت ليس مناسباً للزواج. ستموت العروسة برداً قبل أن تصل إلى الطرف الآخر من القرية فالطريق وعر، والثلج كثيف على سفح الجبل ومن المستحسن أن يعود في الربيع من أجل طلب يد أخته. وهكذا صافح خسرو هلمت بكلتا يديه، وودعه بحرارة وهو يقول له بكل جوارحه:

- نعم بالتأكيد سوف أعود في ذلك الوقت، سأكون هنا ما إن يحل الربيع، سأكون أمام باب منزلكم وأجلب معي أهلي وأعمامي.

أومأ له هلمت برأسه، وابتسم من دون أن يرد بكلمة. مما عزز عند خسرو أن أهل الفتاة قد وافقوا عليه ولن يرفضوه ما إن يقدم العام المقبل.

ظل المسكين ينتظر قدوم نورز ليذهب إلى تلك القرية ويتقدم لطلب يد حبيبته، أخبر أهله وأعمامه الذين لم يعترضوا وفرحوا بالأمر وأعجبوا بجرأته؛ لأنه ذهب وحده كالمجنون وتكلم مع عائلة الفتاة من دون سابق إنذار. ولكن الحظ العاثر كان يتبعه فقبل انتهاء الشتاء مات عمه، يومها صرخ في وجه عائلته

قائلاً: إذا انتظرت أكثر فستضيع مني الفتاة. ولكن عمه الثاني أخبره أنه لا يمكن أن يقدم على الخطوبة وعمه قد توفى ولن يذهب معه أحد للخطوبة، لذلك انتظر مرور الأربعين ومن بعده شدّ اثنان من الأعمام مع أخيه وأولاد أعمامه الرحال إلى قرية ماران. وخسرو كله أمل أن أهل قُمرية موافقون.

النمل

تلك الليلة دخل علينا غريب واستلقى، نحن الذي نسكن تلك الأطلال المتهدمة. ننبش أرضها ونحفر أركانها ونبني منازلنا في باطن أرضها، من بندقيته تبين لنا أنه صياد، ولكن عينيه الحمراوين تفيضان بالحقد والانتقام من شيء ما.

جلسَ على الأرض الرطبة، أشعل النار وبدأ يغفو شيئاً فشيئاً أمام جمرات النار، وقد غادر بأفكاره إلى ملكوتٍ آخر. إلى أن سيطر عليه النوم وهو قاعد في مكانه ونام متكئاً على الحائط المتهدم فوق الأحجار. فيما بعد خرجنا نبحث عما يحمله هذا الزائر من طعام لنخزنه كغنائم لنا وقد غادر إلى ملكوت النوم.

عمّ السرور السرب فقد وجد غنيمة كبيرة ترقد على مقربة منه، سرنا في صف منتظم وتسللنا إلى جسد الرجل، وبحثنا في جعبته وكل أركان جسده عما ينفعنا. للأسف لم نجد سوى ملابس رثة ورائحة البارود مختلطة برائحة الانتقام. وأخيراً وجدنا بعض الطعام في حقيبته الملقاة جانباً، وبدأنا نأخذ فتات الخبز المحمص، وعدنا أدراجنا نملأ مساكننا بالمؤون إلى أن حلّ الصباح، كنا قد كدسنا محصولاً كافياً من هذا الغريب الذي أرسله الرب إلينا في هذه الوقت.

بعد أن تسللت أشعة الشمس من خلال أرواق الأشجار ومن بين طيات جدران المنزل المهدم وأحجاره، وبدأت العصافير تغردُ من جديد، دخلَ إلى المكان عدد من الماعز كان يجرها أحد الرعاة. ذلك الراعي يعرف الجبل وساكنيها من الكائنات الأخرى. أطل وهو يحمل حقيبة كبيرة مليئة بالطعام كانت أعيننا مصّوبة إليها. إنه الراعي دلير. كان يزور الخرابة بين فينة وأخرى ويوقد النار ويفرش على الأرض بعض الجبن والخبز والخضار وبعض الأحيان البيض. يأكل

طعامه ويلقي بالفتات إلى الأرض يحملق في ماشيته ثم يرحل بهدوء مع الماعز. ياترى ما علاقة هذا الراعي بهذا الغريب! كنا نستطلع الأمر بوجل. هل سيمنحه مافي جعبته.

هل سنكون ميسوري الحال أكثر بهذه الزيارة، في بعض الأحيان يفيض علينا البشر بمنافعهم. ولكنهم يقضون علينا إن هاجمنا أشجار بساتينهم. اقتربت الماعز من رأس الرجل وبدأ يتلمس وجهه. نادى عليه دلير يحاول إبعاده، ثم جلسَ إلى جوار الرجل يحاول إيقاظه:

- هلمت... هلمت... استيقظ...

استيقظ الرجل طويل القامة، ضخم البنية وجلسَ إلى جوار دلير يفرك عينيه. أول ما التفت إليه هو بندقيته ليتأكّد من وجودها إلى جواره، قربها منه وبدأ يتثاءب بينما دلير يسرد له ماجرى في القرية الواقعة أسفل الجبل:

- إلى متى تبقى أسير الجبل؟ لقد طال بحثك، ربما رحلَ الدب إلى جبل آخر.

- مهما يكن، لن أنزل ما لم أحقق ما وعدت به. سأنفذ ما وعدت به ولن أكون أضحوكة بين أهل القرية كما حدث ل (دارا).

- ودابيرة التي تسرح على طول ناحية الجبل.

- لا خيار لدي، إما أن أقضي على الدب وإما أن يقضي علي، وذلك أفضل من أن أتحمل سخرية الناس والتشهير بي، ونعتي بالكاذب الجبان.

- ماذا عن نيركز التي مازالت ترد خورشيد بك الذي يأتي طالباً يدها.

- أريد منك خدمة، بما أنني لا أستطيع النزول إلى القرية. اذهب إلى نيركز وأخبرها أنني سوف أبني لها كوخاً هنا، وسأتزوجها ونعيش هنا إلى أن ينتهي الأمر.

توقف دلير يحملق فيه. يحاول أن يستوعب ما يخطط له هلمت، ثم بعد حين استشاط هلمت غضباً:

- ماذا طلبت منك. قم وانزل حالاً وتحدث معها. خذ رأيها وعد حالاً.

خاف الراعي من عيني الشاب الواسعتين. نهض وانطلق يعدو نازلاً نحو القرية. تاركاً الماشية في حماية هلمت إلى حين عودته.

بعد وقت قصير، ظهر الراعي من جديد متقطع الأنفاس يحمل في جعبته بعض المؤن من جديد، وضعها أمام الشاب، ليجد فيها الخبز واللبن والفواكه الجافة والعسل، قالَ الراعي:

- نيركز أرسلت لك كل هذه.

دبّ الحبور في وجه الرجل الذي استفسر:

- هل تكلمت معها بشأن قراري؟

هزّ الراعي رأسه بأسف:

- أخبرتني أنها لا تستطيع أن تعيش في الجبل ولديها طفل صغير، وقالت إن كنت صادقاً معها، فعد إلى القرية وتزوجها.

أمسك الرجل بياقة الراعي:

- ألا تدرك مدى حبي لها.

قال الراعي بخوف:

- وكيف تعلم بذلك وأنت هنا!

تركه الرجل، وواصل الراعي:

- وقالت إن لم تستعجل في طلبها للزواج، فإنها ستضطر إلى الزواج من خورشيد بك الذي ما ينفك يطلب يدها.

استشاط الرجل غضباً، وأخذ يفّكر بما يجب عليه فعله، هل يستكين إلى القدر، ويحني رأسه وينزل من سفح الجبل ويذهب إلى بيت نيركز ليتزوجها ويعيش معها إلى الأبد، أم يبقى في مفاوزه محاولاً اصطياد شيء بات من الصعب اقتفاء أثره.

الماعز الجبلي

كنا قطيعاً من الماعز الجبلي، نسرح في سفوح الجبال، نتسلق قافزين من صخرة إلى أخرى من دون كلل أو ملل. وبهذا لن تستطيع أن تلحق بنا الضواري. على الرغم من أن عددنا قليل فنحن منتشرون في هذه البقع العالية. لا نبقى في مكان واحد، ننتقل باستمرار من جرف إلى آخر. إلا أننا نخشى الاقتراب من عمق الوادي لأن البشر المفترسين يعيشون هناك؛ هؤلاء الذين يحرقون أجسادنا ثم يجعلوننا طعاماً لهم، يسلخون جلودنا ويصنعون منها ملابس لهم، ويضعون رؤوسنا الخالية فوق حيطان منازلهم تبجحاً بما اقترفوه. ننزل إلى الوادي في الليل لنرتشف بعض الماء ونعود أدراجنا والخوف يتملكنا من أن يمسكوا بنا.

وقعت ذات مرة عن حافة جرف بعد أن لاحقني نمر، أبهرتني سرعته، حاولت تسلق الصخور بسرعة خوفاً منه، وبعد أن علم بعدم جدوى مطاردتي، بسبب سرعتي الفائقة ومقدرتي على اجتياز المنحدرات بلمح البصر. وقعت فجأة عن تلة وأنا أحاول أن أعبر صخرة بارزة حتى جرحت إحدى قدمي بفرع شجرة حاد، ولم تندمل إلا بعد حين طويل وظلت ندبة بارزة في كاحلي.

اصطيد عدد من أقراني بيد البشر الذين يجلبون البنادق ويطلقون علينا النار ونحن فوق المنحدرات العالية، فيهوي من تصيبه النار. كنا نهاب سماع وقع أقدام البشر. لذلك كنا ندير رؤوسنا في كل الاتجاهات حين ننتقل من بقعة إلى أخرى.

كانوا يختبئون تحت الحشائش، صامتين من دون حراك إلى وقت طويل. وعندما نمر قربهم تنطلق النيران فجأة من بين الأوراق وتصيب واحداً منا.

من بين هؤلاء الصيادين الذين كنا نخشاهم كثيراً. ذلك الشاب الذي يوجد

باستمرار في هذا الجبل ليل نهار، لا يبرحه لينزل إلى الأعماق. لا نعلم مما يخشى حتى لا يعود إلى قومه. إلى متى يعيش على الصيد. اصطاد العديد من الحيوانات البرية والتهمَ العديد منا. على الرغم من أنني أمتلك قرنين ملتوين وحادين، وقاتلت بهما الكثير من أعواني الذين ينازعونني على المرعى أو الأنثى التي أرغب فيها، فأنطحهم بقروني، وكم تمنيت أن أغرز قرني في بطن هذا الرجل وأنهي حياته كما يفعل بنا! إلا أننا غير قادرين على مواجهته فهو يسير على قدمين ويستعمل يديه ليقتلنا ببندقيته. فكنا نخشى وجوده. نخاف من أن يظهر لنا في أي لحظة، لذلك قررنا أن نرتحل من هذا الجبل الذي هو مستقره ويعيش عليه، فذهبنا أبعد ما يكون عن وجود الرجل الجبلي.

ارتحلنا بعيداً وعبرنا منحدرات وعرة ومشينا طويلاً لنتخلص منه، لكن الشاب ما انفك يجول في الجبال يتتبع أثر شيء ما كان يتفقده. تصورنا بأننا ابتعدنا قدر الإمكان عن شره. ولكن فجأة وجدناه ذات يوم من جديد يسير بين الأشجار والبندقية فوق كتفه. عند ذلك أدركت أن الحياة لم يعد تطاق وأن الدنيا كلها مرهونة بمعدته وأن نهاية كل فرد منا سوف تكون بيد هذا الصياد. عندما لاحظ توجسنا ونحن نتسلق الصخور هرباً منه من جديد، لحق بنا وهو يعد بندقيته ويصوبها نحونا. لكنني لم أتحرك من مكاني، أما بقية القطيع فقد تسلقوا السفح بسرعة وانتشروا في امتداد الأفق لينجوا بجلودهم.

عندما اقترب وشاهدني لا أتحرك من مكاني قيد أنملة، استغرب من جرأتي في مواجهته ، وأنا أحملق فيه بغضب، وأحدق في عينيه، وكأنني سئمت من مطاردته لنا، وأيقنت أن وقت مواجهته ومقاتلته قد حان. أعد البندقية وصوب فوهتها نحوي فقد خاف من أن أنطحه. توقف في مكانه صامداً، وأنا أسير نحوه،

كانت كل خطوة تقربني من حتفي، قررت أن أبقر بطنه ما إن أصل إليه. أدهشه إصراري، فأنزل البندقية وتراجع من مكانه كأنه خاف، وقرر أن يستسلم ويترك عمله المشين هذا. غادرَ المكان واختفى بين الأشجار. وأنا أحس بالانتصار رغم أنني لم أبقر بطنه.

عدّت إلى المنحدر، وطلبت من القطيع أن يستقروا في هذه الناحية فما عاد الرجل مصدر قلق لنا. كان السفح ممتلئاً بالعشب.

لكن ما إن تخلصنا من هذا الصياد العنيد، حتى وجدت ذات يوم، فوهة بندقية أخرى تظهر من بين الأجمات مصوبة نحونا، كانت تريد اصطيادنا. كان قطيع الماعز الجبلي منتشراً في كل الأنحاء، لا يدرك الخطر المحدق به، ولربما كانت مصوبة نحوي. فجأة سمعنا من بعيد دوي إطلاق ناري يخترق الأفق، فهرب مَن في الأرجاء وهم يتسلقون المنحدر بسرعة البرق. حينها قام من بين الحشائش رجل أشقر غريب الطلعة ليس من هذا الإقليم. ينهر الرجل الذي أطلق النار فجأة لإخافتنا، ودفعنا إلى الهرب. لعن الأشقر ذاك الرجل الذي كان يلاحقنا فيما سلف والذي ظهر في تلك اللحظة لإنقاذنا. فشتم وتوعّد بأنه سوف ينتقم لفعلته هذه.

الحصان

كانوا يدعونني بالـ (الأصيلة)، لما ورثته عن أمي، التي هي من أصول الخيول العربية، من جمال وقوة. كل مرة يخبر فارسي الناس أن والدتي جلبها تاجر عربي من الخليج قطع الأميال الكثيرة، وهنا في هذا الجبال حملت الفرس ولم تستطع المسير فتركها صاحبها في منزل صديقه غفور إلى أن تلد ويعود هو من تجارته البعيدة، ولكن للأسف لم يعد ذلك التاجر ولم يره مرة أخرى، لربما قد مات في إحدى الوديان ودُفن تحت ركام الثلج.

رغم لوني الأبيض، فإن عنقي الأملس وشعر رأسي المنساب زادا من جمالي وجعلاني الحصان المميز في هذا الامتداد من الوادي، يأتون من كل حدب ويؤجرونني من صاحبي بعد أن يزينوني بأجمل السروج ويضعوا الزينة فوق أنفي ويأخذوني إلى حيث العروس، أحملها وأعيدها إلى منزل العريس حتى لو كانت من القرية نفسها، أو من القرى المجاورة، حينها يكتظ الناس حولي وهم يشاهدون العروس التي جلبتها، ويُدهشون من جمالي. كان العمل يعجبني فأنا أفضل من الدواب التي تجر العربات وتتعب في الحقول وتنقل الحطب فوق الجبال، وهذا ما يميزني ويزيد من تقديري.

ذات يوم خرجت مع خسرو يصاحبه مجموعة من أقربائه متوجهين إلى القرية الواقعة خلف الجبل من أجل طلب يد فتاة. أتعبني المسير، فأنا لم أعتد على السير في الجبال الوعرة، هذه الجبال البغال وحدها تستطيع عبورها.

وقفنا أمام باب منزل كاد أن يكون خالياً من ساكنيه، كأن أهله قد هجروه. وقفنا لبرهة قصيرة، ننظر إلى خسرو الذي تقدم أمامنا وقلبه يدق من شدة القلق،

تلك اللحظات التي انتظرها الرجل لفترة طويلة، كان خائفاً من أن تكون الفتاة قد تزوجت أو أنهم قد رحلوا وتركوا الوادي إلى وجهة أخرى، تغيرت ملامحه وامتقع لونه، تقدم وطرق الباب، لم يمضِ وقت طويل حتى تنفسنا الصعداء حين فتح الباب، وظهرت منه فتاة ممتلئة في غاية الجمال. فوجئت من العدد الكبير من الناس الذين يقفون أمام منزلها، اتسعت عيناها أكثر حينما شاهدت خسرو، وازدادت ضربات قلبها، أدركنا حينها أنها هي تلك الفتاة التي أعجب بها خسرو، وعليّ أن أنقلها كل ذلك الطريق وأعيدها إلى قريتنا.

لم تعرف الفتاة كيف تجيب ولم ترد بكلمة، توّقف النطق في حلقها، أدركت أن كل هؤلاء جاؤوا من القرية المجاورة من أجلها. خجلت، ومن دون أن ترحب بنا هرعت إلى الداخل تنادي (دابيرة).

خرجت امرأة عجوز، تضع شالاً مزركشاً حول رأسها وقد ظهر من تحته شعرها الأبيض، وحين شاهدت هذا الحشد أمام منزلها أصابها الهلع وتغيرت ملامحها المتغضنة. اتسعت عيناها ونظرت إلينا تحاول التعرف إلى الوافدين إلى منزلها، ولكنها لم تتعرف إلى أحد منا، فقالت بصوتها المتهدج:

- تفضلوا ..

تقدم عم خسرو وبادر بالحديث بكل رزانة وهو يمسك بلجام الحصان:

- دابيرة، نحن جئنا من القرية الواقعة خلف الجبل، جئنا نقدم الخير لهذا المنزل.

على الفور فهمت العجوز الأمر. والتفتت تنقل نظرها بين قُمرية والغرباء، لم

يكن من الشيم أن ترفض هؤلاء القوم الذين جاؤوا من مكان بعيد من دون أن تستضيفهم. فقالت وهي توجههم إلى الداخل:

- تفضلوا رجاء إلى البيت.

فلحقها عم خسرو مستفسراً:

- هل من رجل في المنزل؟

توقفت العجوز في مكانها تفكر، ثم استطردت وهي تحرك رأسها:

- حفيدي هلمت ذهبَ إلى الجبل، سأخبر كاردو أن يأتي.

طارت قُمرية كحمامة أورثتها الريح جناحيها إلى الطرف الآخر من المنزل وطرقت باب أختها خجاو، ولم يمض وقت طويل، حتى جاء كاردو الذي دهشَ من رؤيتنا، ولكنه رغم ذلك رحب بالقوم وطلب إليهم الدخول إلى المنزل.

في المنزل تحدث عم خسرو، وظل الشاب ساكتاً لا يتفوه بكلمة، مطرقاً رأسه، أخبرهم عم خسرو أنهم قد قدموا من أجل طلب يد ابنتهم قُمرية، عندها لم ينطق كاردو بكلمة، وإنما التفت إلى دابيرة يحاول أن يستشف منها الجواب وينتظر أن تبادر بالحديث. إلا أن العجوز كانت تحمل الرد في جعبتها:

- كما تعلمون أن والدي الفتاة متوفيان وأخاها هو ولي أمرها، وهو الآن في الجبل وقد ركب رأسه، وصمم أن يقتل الدب بعد أن تعهد أمام أهل القرية أن ينفذ وعده. ولايريد أن يتراجع عن قوله. والرد عنده، يجب أن تذهبوا إليه، وتطلبوا منه أن يحضر ويرد، وتأخذوا الموافقة منه بنفسه.

لم يعلم أحد حتى خسرو أن هلمت سكن الجبل يقتفي خطوات الدب ليقضي عليه، استغرب الجميع من تصرف الولد العنيد الذي يلاحق ذلك الحيوان. تشاوروا فيما بينهم، لم يكونوا مستعدين لتسلق الجبل الوعر بحثاً عن ذلك الولد الأحمق، دار سجال بينهم لا يعرفون ماذا يفعلون، ومن ثم التفت الجميع إلى خسروا يستطلعون وجهه الذي تجّهم، ولا يعرف بماذا يرد. ولكنه أدرك أن الامر ليس محالاً، سوف يذهب بنفسه للبحث عنه وإعلامه أنه قدم من أجل الخطوبة، واستدراجه إلى القرية من أجل إتمام الزواج، فمن دونه لن يتم هذا الزواج.

نهضَ، وقال بحزم:

- سأبحث عنه ، وأعيده إلى القرية.

انفرجت أسارير وجه الجدة بعد سماعها ذلك، وقالت لخسرو:

- إذا استطعت أن تجد هلمت وتعيده إلى القرية، فإنني أمام الجميع أقول لك إنني موافقة على زواجكما.

دهش الجميع من انفعال العجوز، لقد عاد بعض الأمل إلى دابيرة في أن ترى هلمت مرة أخرى وتعيده إلى جادة الصواب، ابتهج خسرو الذي حصل على مباركة دابيرة، ولم يبق سوى أن يجد هلمت ويطلب إليه العودة من أجل زواج أخته. فاستطرد:

- لن أهدر الوقت، سوف أذهب حالاً إلى الجبل.

خرج خسرو من المنزل وقبل أن يرحل سلمه عمه البندقية وطلب إليه أن يكون حذراً. امتطى ظهري وتسلقنا الجرف.

توجهنا أنا وخسرو وكلبه وصعدنا إلى الأعلى، نبحث عن هلمت، لا أخفي عليكم أنني كنت أرتعب من ملاقاة الدب، من لا يهاب من ذلك الحيوان الهائج. حتى البشر يخشونه، ولكن البشر يمتلكون البنادق ليحموا أنفسهم، أما نحن فماذا نفعل، ليس لدينا سوى أرجلنا الأربعة نطلقها للريح ونهرب بقدر المستطاع، نحن الخيل الأصيل الذي لم يُخلق للعمل المضني، أنا حصان الزينة المخصص لنقل العرسان، والآن يورطونني في مواجهة دب شرس لا أستطيع مجاراته، كان الكلب يسير بجواري كنت أحس بالخوف يغمره هو أيضاً، لا مناص فهو يخاف أيضاً إلا أنه لا يريد أن يفارق صاحبه ولو للحظة، وسيواجهان المصير معاً.

في منتصف الطريق، لم نرتقِ إلا القليل، سمعنا دوي طلقات نارية تئز من تحت آذاننا، دوّت إلى جوارنا، صهلت عالياً وتوقفت، بهلع أتلفت في كل الأنحاء، من أين جاءت تلك الرصاصة المدوية. توقف خسرو رابط الجأش يفتش في الأطراف بحثاً عن الفاعل. كانت النار موجهة إلينا.

انطلقت الماعز من بين الحشائش والأجمة وانتشروا في الأرجاء، وفجأة، ظهرَ شاب وفي يده بندقية يصوب فوهتها نحونا، اقترب منا بوجه غاضب، كمن يريد أن يفتك بخسرو ويرديه قتيلاً، هلعت، فقد اعتدّت سماع تلك الطلقات النارية، ولكن في الجو من أجل الأفراح وليس من أجل القتال. ماذا لو أخطأ الهدف وأصابني دون خسرو، تململت من مكاني والتفت محاولاً الابتعاد، لكن خسرو لجم الحبل وأعادني إلى هدوئي وطلب مني التوقف، كان الكلب ينبح بشدة في وجه الرجل، كأنه ينتظر الإشارة من صاحبه لينقض عليه. صرخ خسرو في وجه الرجل:

- من أنت، لقد أخفت الحيوان، هل هذه رجولة؟

تجّهم وجه الرجل وهو يهدد خسرو من جديد:

- أنا دلير، أنا الرجل الذي وعدني هلمت أن يزوجني أخته قُمرية، كيف لك أن تقدم على هذه الخطوة وتأتي من قرية بعيدة لا نعرفك ولا تعرفنا وتطلب يد الفتاة.

استغرب خسرو مما بدر من ذلك الولد الذي على ما يبدو انه راعي الماعز، فرد عليه خسرو بغضب:

- هلمت وعدني العام الفائت أن يزوجني أخته، من أين جلبت ذلك الكلام؟

اقترب الشاب منا أكثر ووجه بندقيته صوب خسرو قائلاً:

- إن لم تعد من حيث أتيت، فاعلم أنك ستموت في الحال.

اشتد غضب خسرو. سحب اللجام بشدة والتفت فيما حوله، ليقفز في لحظة خاطفة عن الحصان ويلقي خصمه على الأرض وأمسك البندقية وراح يجره على الأرض. كان المشهد مخيفاً. ماذا لو أطلق الشاب النار في تلك اللحظة، لكن خسرو سبق الريح وحط على الراعي بسرعة البرق، أخذ سلاحه ولكمه على وجهه بقوة ومن ثم وجه البندقية صوبه قائلاً:

- لو اعترضت طريقي مرة أخرى، سوف أقتلك بطلقة في رأسك الفارغ أيها المعتوه.. هيا اغرب عن وجهي.

لم ينطق الراعي بكلمة، فغر فاه وعلم أنه غلب من قبل خصم لم يقدّر قوته، قام من مكانه وهرب بعيداً نحو القرية واختفى بين الأشجار، ودّ لو ترك حيواناته

طليقة على السفح.

وضع خسروا البندقية في جعبته الموجودة على السرج، اعتلى صهوتي وعاد من جديد يعدو متسلقاً الجبل.

لم يمض الكثير من الوقت، حتى سمعَ خشخشة بين الأعشاب، وانتبه إلى وجود كائن ما يقترب منه من جديد. ظنّ أنه الدب يختال بين الأجمات، أعاد البندقية وصوبها ناحية الصوت. فجأة ظهر أمامنا رجل بشعر أشعث، يحمل بندقية على ظهره ويتجول في الخلاء، اكتشفت حينها أنه هلمت. وقفا للحظة يتمعنان في وجه كل منهما ليتعرفا إلى بعضهما بعضاً. نطق خسرو بحبور:

- كاكة هلمت.

اقترب منه هلمت ينظر في عينيه، يستكشف ملامحه. متسائلاً:

- هل أنت الشاب... الذي قدم العام الفائت.

واصل خسرو يذكره باسمه:

- نعم، إنه أنا خسرو.

دهشَ هلمت مستفسراً عن سبب قدومه:

- وما الذي تفعله هنا؟

- قدمت مع عائلتي من الصوب الآخر للجبل، لأنفذ وعدي وأطلب يد قُمرية.

- وماذا تريد مني الآن؟

- أن تنزل معي من أجل أن يتم الأمر.

يمم هلمت شطر الجبل، حمل بندقيته ومضى في طريقه يبحث عن الدب. دهش خسرو من تصرف الرجل وهو الذي قدم للبحث عنه كل تلك الأميال ليتركه بسهولة، ويذهب للبحث عن فريسته. لحق به خسرو وهو يناديه:

- كاكه هلمت.. توقف رجاء، ألا تعلم أنني قدمت من بعيد إليك، الجدة أخبرتني أنها لن ترد على طلبي ما لم تأت أنت. والناس في القرية في الأسفل ينتظرون قدومك.

مشى هلمت إلى الأمام غير مكترث بما قاله الشاب. استغرب خسرو من سلوكه. نادى عليه مرة أخرى بغصة:

- ألا يهمك أمر أختك؟.

جاءت تلك الجملة مثل طلقة نارية اخترقت رأسه، بدأ يفّكر بها جلياً، إن خسرو على حق. حدقَ في عينيه لفترة طويلة، ليستطلع مدى إصرار الرجل وتمسكه بأخته، وتيقن أنه لن يجد شخصاً مثله يهتم بها، قرب فوهة البندقية في وجهه قائلاً:

- أخبر الجدة عن مباركتي لهذا الزواج، اسمعني جيداً، لا تظن أنك لو أخذتها إلى الطرف الاخر من الجبل ستكون بعيدة عن أنظاري، أعتقد أنك سمعت عني، عندما أصر على شيء أنفذه، ولو كلفني حياتي، لذلك أخبرك من الآن إياك أن تجرحها يوماً، وإلا سأقتلك ببندقيتي هذه.

المزمار

إن أصلي من القصب، صنعني راعٍ كان يهيمُ في الوديان، يسوق ماعزه ويجلس تحت شجرة البلوط ويبدأ بالعزف مغمض العينين يتخيل حياته وقد انسابت مع الطبيعة، وهو ينصتُ إلى صوت العصافير وخرير الماء وحفيف الأوراق وتمايل الأشجار مع الرياح التي تصدر صوتاً جميلاً. تلك الأصوات مجتمعة تشّد الكائنات الحية نحوها، الغزلان في البعيد والفراشات وحتى الورود تلتفت إليها بغنج. أدركت من ألحانه الشجية كيف تحطم قلبه بعد أن تزوّجت الفتاة التي كان يحبها بابن عمها عنوة كما تسير الأمور، ولا حق لها أن تختار في حياتها أبداً.

بعد زواج تلك الفتاة، انغمسَ الراعي في أتون حزن أبدي، تترقرق الدموع في عينيه وهو يعزف، تنصت إليه الحيوانات كلها من دون أن تستطيع مواساته. قررَ أن يغادر تلك القرية، فبقاؤه هناك يزيد من شجونه. وعندما انتقل إلى مكان آخر، بحثاً عن مصدر رزق جديد، وضعني تحت حزامه، اشتّد به الجوع ولم يجد في القرى الأخرى من يقبل أن يعمل راعياً لديه، ولم يحن موسم جني ثمار الأشجار ليجد لنفسه عملاً ومسكناً. كان ينام في خربة، ويهيم في الوديان بلا أمل.

ذات يوم اقترب منه رجلان يستمعان إلى ألحانه الشجية، أنصتا إليه من مسافة قريبة من دون أن يعكرا صفوه. أعجبتهما مقدرته على العزف، أخبراه أنهما فرقة تغني في الأعراس وتتجول من قرية إلى أخرى. بعد أن عرفا قصته، عرضا عليه أن ينضّم إليهما. استغرب الراعي من طلبهما، فهو لم يعزف في الأفراح سابقاً، وكيف يفعل ذلك والحزن يتملكهُ، طلبا إليه أن يجرب معهم،

توجهوا إلى الجبل وهناك بدأ الطبال بالقرع وطلب من الراعي أن يعزف معه ولكن محاولاته باءت بالفشل فالحزن المدفون في داخله حال دون أن يطلق نغمة سعيدة من جوفه. وقرع الطبل كان يزيد من جروحه وحزنه.

علما أنه من الصعب جذب هذا الشاب الذي يسكنه الحزن ويطمر ماضيه ليغني معهم في الحفلات، ولكنهما كانا يحسدان الناي الذي في يده، بدا لهما كنزاً يجب أن يكون في حوزتهما. ليلتها ناما عنده في الخربة وصباح اليوم التالي قبل طلوع الفجر سرقوني من تحت رأس الراعي وانطلقا بعيداً إلى وجهة أخرى. علمت أن حزناً كبيراً سوف يصيب الراعي بعد أن يستيقظ ولا يجدني. لم أره بعد ذلك. ولا أعرف ماذا حل به.

هكذا تحولت من نغمات الحزن إلى عازف للفرح في الحفلات والدبكات. ينفخ فيّ الرجل باستمرار وهو إلى جوار الطبال يسامر إيقاعه، والناس يرقصون حولهما متشابكي الأيدي.

تدوم حفلات الزفاف ثلاثة أيام، يقدمُ العريس خلالها ما لذ وطاب من طعام للضيوف إلى أن ينتهي العرس. وعندما يجلبون العروسة من قرية أخرى تُلازم موكبها إلى أن تصل إلى قرية العريس ونحن نعزف له.

ذات يوم توجهنا لجلب فتاة من قرية ماران، ولكن ما أدهش العازفين، أنهما كانا عليهما مواكبة العروسة إلى الجبل حيث هناك ينتظر أخوها ليباركها قبل أن تذهب إلى الطرف الآخر من الجبل.

كانت السماء صافية، والشمس ساطِعة عندما وصل أهل العريس إلى القرية يصطحبون حصاناً أبيض مزيناً، ليحمل العروس، التي ظهرت بعد حين ونحن

نغنى لها أمام باب منزلها والناس تحتفل فيما حولنا. كانت ترتدي ثوباً أبيض كالعادة وتضع شالاً ملوناً فوق وجهها لن ترفعه إلى أن تصل عند العريس. بعد أن رقصوا كثيراً أمام باب العروس حملوها فوق الحصان بعد أن قبلوا يد الجدة وتوجهوا بها إلى الجبل بينما وجهتنا في الطرف المغاير. هناك على مقربة من الجرف طلب منا والد العريس ألا نتقدم أكثر ونوقف العزف. أخذوا العروس فوق ظهر الحصان إلى السفح وهناك التقت بأخيها الذي كان بمنزلة والدها وولي أمرها فليس لديها أحد غيره، ولكن لم نفهم سبب عزوف الشاب عن النزول من الجبل إلى القرية لحضور حفل الزفاف. ولكن أدركت من الحوار الذي دار بين الناس، أن هذا الشاب حلف أمام أهله وتعهد بأن يقضي على دب ولن ينزل من دونه من ذلكِ الجبل، لذلك أخذوا العروس إليه لتودعه قبل أن تغادر.

بعد ذلك رجعنا أدراجنا مع العروس، وتوجهنا بمحاذاة الوادي إلى الطرف الآخر من الجبل. في الطريق سمعت قصة أخرى مماثلة لقصة صاحبي القديم: إن تلك العروس كان يطلبها راعي تِلك العائلة ويدعى دلير، فهو تربى لديهم وأصبح راعياً بشرط أن لا يأخذ منهم شيئاً مقابل أن يزوجوه ابنتهم عندما تكبر، لكنهم نكثوا العهد وزوجوا الفتاة من رجل آخر، وقد قدم له العريس الذي يدعى خسرو مبلغاً من المال مقابل أعماله راعياً عندهم طوال تلك السنوات حتى لا يحمل عليهم أي ضغينة ومن ثم رحل الراعي وتوجه إلى نهاية الجبل حيث وجد عملاً له مع الإنكليزي الذي يبنى مخفراً هناك.

تذكرت مالكي القديم وحزنت لكربه، وقررت الصمت طوال الطريق، رغم أن العازف حاول مراراً أن يصلحني بيده، لكن بلا جدوى. ليخبر صاحبه الطبال فيما بعد، أنني لم أعد صالحاً وأنه سئم مني، أخرج نايه القديم ورماني في الجدول؛

ليجرفني النهر معه إلى مالا نهاية، أحمل أشجاني وأفراحي التي تغنيت بها طوال وجودي إلى المصبِ الأخير.

المغزل

كانت المرأة العجوز شاه كول تفركني بيديها النحيفتين باستمرار من أجل أن تجمع خيوط الصوف المبعثرة لتتشابك معاً وتصنع خيطاً رفيعاً من الفرو الذي يساعدُها في صناعة حاجاتها عندما تنسجها حسب طلبها، أو تسلمها لحفيدتها لتخيط لها ماتريد. كنت أحس بلمسةِ يديها المرتجفتين حينما كانت تدعكني بقوة فأدرك ما يستبد بقلبها من حزن لا ينقضي. كانت تشغل نفسها بي تحت سقف بيتها الواطئ وهي تحملق في الجبل وتهذي مع نفسها، وتنادي حفيدها الذي يدعى هلمت، وتطلبُ من الرب أن يعيد إليه رشده؛ ليكف عن بحثه المضني.

كانت العجوز تحملني أينما ذهبت، فأنا ملاذها تهتدي إليّ حينما يتملكها الحزن وتفركني بقوة لتحرك وألمها وحياتها وهي تدورني كالمزراح بسرعة فألف أحزانها في خيط رفيع. كنت أتمنى أن يكف ذلك الشاب عن دورانه وينزل من الجبل؛ لينهي آلامها وانتظارها الطويل. تزورها حفيدتها وهي صامتة لاتحمل في طياتها إلا الحزن لما حلّ بهم، ولا يقدرون أن يفعلوا شيئاً حيال ابنهم هلمت العنيد، في بعض الأحيان ينشبُ شجار حاد بين الأم والحفيدة لأتفه الأسباب، مبعثه وأساسه غياب هلمت.

عندما تصعد الشمس فوق الجبال وترسل ضياءها إلى المنازل المطلة على الوادي، كانت العجوز تطل من خلال النافذة وعندما تتأكّد أنها خالية من أي أحد، تضعني جانباً وتخرج المشط المصنوع من الخشب، تنزع شالها، فينساب في الظلمة شعرها الأبيض كأنه موج ماء بحرٍ مالح، تمشطُ شعرها وتنذر عشرات النذور من أجل أن ينزل هلمت من ذلك الجبل.

مضى الربيع بكل جماله، وأتى الصيف بحرّه، ولكن رغم الحرارة المزعجة، يتسلل نسيم من الهواء المنعش من بطن الوادي، وبرودة تبعثها الجداول في منتصف الليل. أما الكوخ المصنوع من الحجر، فإنه يصدُ حرارة الصيف وبرودة الشتاء. تلك الأشجار المستقيمة والمزهوة في الصيف تنازع التلاشي، تغير ألوانها إلى الأصفر وتبدأ بالسقوط في حضن العجوز وهي تفركني بتأنٍ، وحينما تلاحظ أوراق الخريف تتراكم في حضنها تتوقف لحظة، تتأمل السماء، ثم تسقطُ دمعتان من عينيها على المزراح، أحسّ بحرقتها، وأوصالها ترتجف من قدوم الخريف، وحفيدها مازال معتكفاً في الجبل، والشتاء على الأبواب، ماذا سيحل به؟

قدم الشتاء، وتعرت الأغصان، وتغلغل البرد ببطء من قمة الجبل إلى باطن الوادي، مما جعل العجوز لا تبرح كوخها وتبقى في الداخل. مع اشتداد البرد، كانت العجوز تزيد من سرعة يدها في لف المزراح وهي تستشعر الخوف من مصير هلمت. ومع أول رعد زمجر في السماء هلّعت من مكانها وألقت بي على الأرض، وقامت بهلع ترنو إلى الخارج وتتمتم في ذاتها كلمات لا يفهمها. كانت جميع أوصالها ترتعش، ويداها المرتجفتان لا تقويان على حملي.

ذات يوم رأت مجموعة من الرجال يمرون إلى جوار كوخها، وينحدرون نحو الوادي، وجدت الفرصة مواتية، مادامت هي لا تقدر على النزول إلى الأسفل للتشاور مع أهل القرية، ولا تستطيع صعود الجبل، خرجت من كوخها، وهي تحملني، والصوف معلق على المزراح، ونسيت أن شعرها الأبيض مكشوف، ويبدو كسحابة من الغيوم البيضاء. صاحت بصوتها الأجش في الرجال:

- أيها القوم .. يا قوم.

التف الرجال في الحال إلى مصدر الصوت، وجدوها تطل من كوخها، وتطلب منهم التمهل. جزعٌ الجميع من مشاهدتها وهي ترنو إليهم بعينين غائرتين وشعرها الأبيض تلعب به الريح. واشتدّ خوفهم عندما اقتربت منهم، وصرخت في وجههم تعاتبهم:

- أين رجولتكم! أين أخلاقكم! كيف تتركون فرداً من قريتكم من دون أن تتفقدوا حاله؟ كيف يسمح لكم ضميركم أن يظل واحد منكم في الجبل إلى الآن من دون أن تفعلوا شيئاً من أجله؟ لا تسألون عنه، ولم تكلفوا أنفسكم عناء الذهاب والبحث عنه! ثكلتكم أمهاتكم، عار عليكم.

أحسو بالخجل من أنفسهم، فلم يوبخهم أحد في حياتهم مثل ما فعلت هذه العجوز، وكان كل ما قالته صحيحاً. أطرقوا رؤوسهم، لم يكن لديهم ما يردون به. قال أحدهم محاولاً أن يهدئ من روعها:

- ماذا نفعل، يا دابيرة، إن ابنك قد ركب رأسه، ولا يريد النزول من الجبل.

لم تسكت العجوز، وإنما بدأت تلومه، وهي ترفع المزراح في وجهه:

- أنت ابن كولان؟ كم حملتك إلى الأعالي عندما مرضت أمك وأنقذت حياتك! أهكذا ترد على عجوز؟ إن والدتك أكثر رجولة منك. كان عليك أن تصعد، وتستفسر عنه وتذهب لمساعدته إن احتاج إلى شيء، ولكن ماذا أقول! إنكم كالحجارة الصماء لا تشعرون.

لم يتحمل الرجال توبيخها لهم، وخجلوا من أطفالهم الذين يقفون إلى جوارهم يسمعون ما تقوله لآبائهم. لم يكن أمامهم سوى أن يخضعوا لأمرها، ويكونوا تحت

طوعها، تمتم مامند:

- وماذا تنصحيننا، يا جدة؟ كيف نهتدي إلى هلمت ونجعله يعود عن كلامه.

قالت العجوز بغضب:

- أنتم الرجال... اذهبوا وافعلوا ما يمكن أن تفعلوه، أعيدوا هلمت من الجبل، لن يتحمل برد الشتاء، وسيموت وهو تحت الثلج وأنتم لا تكترثون.

أطرق الرجال مذعنين، وقال مامند:

- وعد، يا دابيرة أننا بعد الظهر سوف نصعد الجبل، ونلبي طلبك، ونحاول أن نقنع حفيدك في العودة إلى القرية.

رفعت العجوز المزلاح مرة أخرى في وجههم وهي تصيح:

Telegram:@mbooks90

- هكذا. اذهبوا ولا أريد أن أراكم ما لم تعيدوا إلي هلمت إلى المنزل.

لم تتحرك شاه كول من مكانها وهي تلاحق بنظرها الرجال وهم يغادرون المكان، بعد أن وعدوها أن ينفذوا ماطلبته إليهم.

كانت دابيرة تأتي وتروح، لا يرتاح لها بال وهي تنتظر عودة أهل القرية ومعهم هلمت. لم تتخلّ عني، ابقتني في يدها وهي تنتظر ما سيحدث.

ظلّت واقفة خلف النافذة، تنتظر أن يعود هلمت، تخرج تارة من الباب وتلقي نظرة على الطريق الممتد إلى الجبل الشاهق.

قارب النهار على الانتهاء، حينما عادَ الرجال أدراجهم من الأعلى خاليي

الوفاض. فوجئوا عندما وجدوا العجوز تنتظرهم على الطريق، تسللَ الرعب إلى أوصالهم وهم يحملقون في وجهها، لا يعرفون كيف يخبرونها بما حصل. صرخت فيهم المرأة:

- أين هلمت؟ ألم أقل لا تعودوا من دونه!

كانوا عاجزين عن الكلام، ولكنهم، لا بد أن يخبروها بالحقيقة:

- دابيرة لقد بحثنا عنه في الجبال كلها. شبراً، شبراً، ولم نجد له أثراً! بحثنا عن أثر هلمت لم نجده

- ماذا تقصدون؟

- بينما هو يبحث عن أثر الدب، بدأنا نحن نبحث عن أثر هلمت حتى وصلنا قمة الجبل ولم نجده.

- ماذا تعنون.. هل ابتلعه الجبل؟

كانوا يخافون أن تظن العجوز أن هلمت قد اختفى أو أكلته الوحوش:

- لقد سمعنا أنه توجه إلى الجبل الآخر بحثاً عن الدب.

من الخوف ترددوا أن يقولوا الحقيقة للعجوز.أنهم قابلوا هلمت إلا أنه رفض رفضاً قاطعاً العودة إلى القرية، وقد طلب إليهم أن يختلقوا هذه الحكاية لدابيرة، ولا يخبروها أنهم لم يستطيعوا إقناعه في التخلي عن قراره والنزول معهم؛ لأن الجدة لن تتركهم وشأنهم حين ذاك.

الخريف

الغيمة

أسبح في الفضاء حول الأرض، أتماهى مع شقيقاتي، ندور فوق السهول ونُحجب أشعة الشمس عن الأرض، حينما وصلنا إلى جبل هلكورد، كانت قد مرّت أشهر عديدة من دون أن تمطر السماء، الأعناق مرفوعة والعيون مشدوهة إلى الأفق، تترقب أن تجود السحب وتغدق على الأرض بمائِها الوافر.

في الأسفل عند قرية ماران اجتمع الناس عند البساتين وبدأوا يتحدثون مع بعضهم بعضاً، جمّعهم الشيخ حسن، وطلبَ إليهم أن يصعدوا الجبل من أجل دعاء الاستسقاء. وافق أهل القرية على الاقتراح، فمزارعهم تحتاج إلى الماء الذي بدأ يجف، فإن احتبس المطر هذا العام أيضاً، فإن زروعهم سوف تموت.

انتشر خبر دعاء المطر في أرجاء القرية وخرج الناس من منازلهم وهم يأملون أن تجلب لهم الصلاة رحمة من الرب. ارتقوا الجبل وانتشروا على سفحِه يتقدمهم الشيخ لتبدأ الصلاة. يطلبون من الله أن يغدق عليهم برحمته، ويروي الأرض بالمطر. كانت الأيادي ترفع إلى السماء في دعاء مستمر، وأنا لا أحمل في جعبتي قطرة مطر من أجل أن أريح هؤلاء البشر.

في الطرف الآخر من الجبل، حيث ذلك الفتى العنيد الذي وصلتَ حكايته إلى عنان السماء، كان مازال يجوب المنحدرات بحثاً عن أثر لفريسته. لقد حملتني الرياح ورأيت الأرض كلها، ولم أر شاباً عنيداً مثله. ظل مصراً على أن لا يغادر الجبل، وهو لا يدري أن الدب الذي يبحث عنه قد رحل من ذلك السفح إلى مكان بعيد، ولا أظن أنه سوف يعود عما قريب إلى تلك البقعة.

ماكان يجول في قلب الشاب هو حبه لتلك الأرملة التي تدعى نيركز،

واشتياقه للدابيرة التي لم يرها منذ أمَد طويل، فصمم على أن يلاقيها، لتطمئن وتنزع الغم المتراكم في صدرها.

عندما علم هلمت بنية القرية التوجه إلى الخلاء من أجلِ الدعاء. وجدَ أن الفرصة سانِحة لمقابلة الجدة ونيركز أيضاً. فالقرية خالية ولن يتَسنى لأحد رؤيته، وهم يجتمعون في الجانب الآخر من الجدول.

نزل من السفح واقترب من مشارف القرية، وعندما كان على أبواب منازلها تراجع خطوة ووقف في مكانه، فكّر في كلام الناس، وكيف كانوا سيسخرون منه لو اجتاز القرية ورآه أحدهم، عند ذلك لن يتركوه وشأنه، سيدعون أنه انتهزَ الفرصة ليدخل القرية، وهو لن يجعل نفسه علكة في أفواههم، ولكنه فكّر في دابيرة، يجب أن يراها لقد طال اغترابه عنها، ومن هناك سوف يلتقي بنيركز في منزلها فهي لن تغادر القرية لتشارك الناس في تلك المراسيم. ولكن كان عليه أن يتخطى كل تلك البيوت من أجل أن يصل إليها في وسط القرية وسيشاهده الناس. عند الحافة كان أقرب منزل إلى ناظره بيت سامان، اقترب من جدرانه المبنية من الجس والصخر، تلّمسها، كأنه يتلمس عالمه القديم، تخطى حدود القرية وبدأ ينادي ليتأكّد من خلوها، لم يكن هناك من مجيب، وكأن أهل القرية قد ابتلعهم الحوت، وخيم على القرية صمت مطبق. شعر بالرهبة وهو يتقدم، كأن الأرض تحصي خطواته، أو كأنهُ يقتحم عالماً محرماً، تراجع قليلاً، وراحَ يصيخ السمع إلى دقاتِ قلبه الذي يكاد يقفز من بين ضلوعه.

خرجت من بين المنازل امرأة عجوز تتوكأ على عصاها، اقترب منها، علم أنها دابيرة، كانت تحملق فيه بوجل، لم تستطع أن تتقدم إليه، فهي لا تستطيع السير لخطوات بعيدة. دهشت من وجود هلمت على بعد أمتار منها، اتّسعت عيناها غير

مصدقة ما تراه، دنّت من جدارن المنزل ببطء، فقدماها لا تساعدانها على الحراك إلا أنها مشت بلهفة نحو هلمت، غير مصدقة ما تراه. وعندما اقتربت أكثر من هلمت، تأكّدت أنه هو هلمت بلحمه ودمه، رفعت يدها عالية تطلبُ منه أن يدنو منها. ازدادت سرعة دقات قلبها، وهي فاتحة ذراعيها لهلمت. فجأة، وقعت أرضاً وتجمدت في مكانها. لم يقف هلمت مكتوف الأيدي. ركض نحوها وحملها بين ذراعيه. كانت عيناها مفتوحتين على اتساعهما، لكن الحياة كانت قد غادرتهما. نادى هلمت مرات عدة (دابيرة، دابيرة) ولكن جسد العجوز ظل ساكناً. أدرك هلمت أن خطباً ما قد حدث للجدة. رفع يدها فوقعت أرضاً، وحينما قرب أذنه من صدرها لم يسمع دقات قلبها ولا هسيس تنفسها. لقد ماتت في اللحظة التي وقعت عيناها عليه. التفت حوله لم يكن هناك أحد. ناداها لعلها تجيب، ولكنها ظلت صامتة. ترقرقت الدموع في عينيه، نادى مخاطباً جثتها، بصوتٍ أجش: (آسف... آسف)، حملها وأعادها إلى المنزل، وعندما دخل إلى الكوخ أحسّ بالغربة بين جدرانه بعد كل هذا الزمان على مغادرته. وضعَ دابيرة على الفراش وقبل رأسها وأغمض عينيها، كانت صورته هي آخر ما وقعت عليه عيناها، فظلت صورته مرتسمة فيهما، ثم شعرَ أنه يجب أن يغادر المكان قبل أن يشاهدهُ أحد. خرج إلى الجبل والألم يعتصر قلبه لأنه ترك جدته في هذه الحالة.

عندما عاد أهل القرية من الجبل، بعد أن صلوا صلاة الاستسقاء ودعوا ربهم أن يغيثهم بالمطر، وبدل من أن ترعد السماء. خرج صوت كالرعد من بيت دابيرة. كانت خجاو تنادي القوم. تجمع أهل القرية وقد وجدوا أن دابيرة فارقت الحياة.

كانت خجاو تولول وتعاتب هلمت لأنه لم يلبّ طلب دابيرة ويأتي لرؤيتها قبل مماتها. كانت تصيح بصوت عالٍ (هلمت أين أنت؟ دابيرة ماتت ولم تراك).

وصل الخبر إلى الجبل، وطلب أهالي القرية من هلمت حضور مأتم جدته. ولكنه رفض، أخبرهم أنه سوف ينتظرهم عند المقبرة ليواروها الثرى. استغرب الناس من إصرار الرجل إلى هذا الحد. كيف لا ينزل ويرى جدته لآخر مرة. لم يدرك الناس ما حدث ذلك اليوم، وأنه رآها قبل وفاتها.

وعندما حملوا الجثة إلى السفح، وصل هلمت وحمل النعش مع الرجال. كان كاردو يهزّ رأسه معاتباً، فقد ماتت وهي تحلم بأن تراه قبل وفاتها.

دفنوها، طلب الشيخ من هلمت أن يحضر الفاتحة في القرية، لكنه رفض، ولى وجهه شطر الجبل وصعد إلى الأعلى بصمت من دون أن يلتفت إلى الرجال من حوله.

المسبحة

كنت المسبحة المفضلة لدى خورشيد بك، لأن خرزاتي كبيرة مصنوعة من حجر الازورد ومزينة بأجمل النقوش، لا أفارق أصابعه، ألتف دوماً حول خنجره المستدق الذي يضعه في حزام سرواله. كنت أقرب شيء إلى ذاته، فكنت أعلم ما يجول في خاطره من خلال حركات يده، فعندما يفكر في أمر ما، كان يطرق الخرز بعضها ببعض بسرعة، وعندما يغضب كان يجمعني بين كفيه ويسحقني محاولاً إخراج ما في داخله، وعندما يشتدّ به الغضب، كان يضرب الخرز ببعضها بعضاً، فأدرك أن خطباً ما قد وقع، وكم مرة رمى بي في وجوه الناس من الغيظ وكان ذلك أقصى أنواع الغضب ولن يغفر له خورشيد بك أبداً.

ذلك اليوم غضب خورشيد بك بشدة، كان يقطع ديوانه الطويل جيئة وذهاباً، فقد بناه بشكل مستطيل ليستوعب أكبر عدد من الضيوف، وكان يكفي أن يسير من بداية الديوان إلى نهايتهُ ليوقد جمرات غضبه، وهو يفكر بتلك المرأة التي لم ترد على طلب زواجه إلى الآن، عليه أن يبادر بخطوة جديدة، ولا يقف مكتوف الأيدي أكثر من ذلك.

عندما كان وحيداً كان يتحدث إلى نفسِه كثيراً ويدع مافي قلبه يتناثر بين حبال الخرزة. فأنا أعلم أسراره وماذا فعل في حياته من الأمور البشعة من أجل تلبية رغباته وهاهي تلك الأرملة تصّده. كان يتمتم بصوتٍ أجش:» لقد قتلت زوجها ببندقيتي هذه، ونحن في المعركة، كيف يذهب ذلك هباء. من أجلها قتلت ذلك الرجل وهي الآن ترفض الزواج مني! لن أسكت. إن لم توافق هذه المرة لسوف أقتل ذلك الولد المعتوه هلمت أيضاً، نادى زوجه بغضب:

- اذهبي الآن، واطلبي لي يد نيركز، وإن لم توافق أبلغيها أنني سوف آخذ منها الطفل عنوة وأربيه بنفسي، هذديها- افعلي أي شيء لتقنعيها.. هيا، وإلا، لا تعودي إلى المنزل.

خافت الزوجة، وهرّعت إلى الخارج تلبي أوامره من دون تردد. ثم نادى رزا الذي كان يسير في الحوش والبندقية في يده، قائلاً:

- هل تتذكر الإنكليزي عندما قدم إلى ديواني؟

- نعم، ياسيدي.

- هل تتذكر أنه طلب إلينا أن نستدرج هلمت من الجبل، وأن نلقنه درساً لا ينساه.

هزّ رزا رأسه موافقاً.

- إذاً، يجب أن نفعل شيئاً... وإن تطلب الأمر اقتلوه، إنه أمر من الإنكليزي نفسه.

- ولكن، يا سيدي!

- اذهب ونفذ كلام الإنكليزي... إنها أوامره، ونحن لاطاقة لنا في مجابهة ذلك الإنكليزي.

- أمرك، يا بك.

غادر رزا المكان، كان الشرر يتطاير من عيني خورشيد، وتهتز جدران الديوان من صراخه. لم يعد يتمالك أعصابه، كان ينقلني بين يديه بعصبية، ويزرع

الديوان جيئة وذهاباً، في انتظار أن تجلب له زوجته الأولى خبراً مفرحاً، وتخضع نيركز إلى الزواج منه.

بعد ساعة عادت زوجه، تقف وفي وجهها يبدو الامتعاض. قالت بصوتٍ أجش، وعينا خورشيد مصّوبتان نحوها:

- لقد تحدثت معها.

- جيد، وماذا قالت؟

تمتمت وهي لا تعرف كيف تنطق بالأمر:

- قالت إنها... إنها... لن تتزوج من قاتلِ زوجها.

تجمّد الدم في عروق خورشيد، وزاغ بصره من ذلك التصريح. هل يُعقل أن تعرف المرأة الحقيقة، كيف! ولا أحد يعلم بذلك، من المستحيل أن يحدث ذلك. حدّقت الزوجة في وجهِ خورشيد وكأنها تريد أن تتيقن من أن ماقالته صحيح، فتلعثم خورشيد وهو يحملق في وجه زوجه:

- وهل صدقتها؟

جمعت الزوجة قواها لأول مرة في حياتها، وتكلمت بغيظ يكتمه قلبها:

- ولمَ لا، وأنا لم أر رجلاً أشرس منك في حياتي.

أمسك خورشيد بعنقها ورفع مسبحته في وجهها يهددها:

- إن نطقت بهذا الكلام مرة ثانية فسوف أقتلك أنت وهي كذلك، هل فهمت.

تخلصت المرأة من يد خورشيد بك بأعجوبة، وغادرت الديوان والدموع تملأ عينيها.

أما خورشيد فقد تجمدت أوصاله، أدرك أنه في موقف لا تحمد عقباه، ماذا لو تكشفت حقيقة قتله لذلك الرجل، فكّر بينه وبين نفسه، وكيف عرفت بالأمر. أيقن الآن أنه من المستحيل أن يتزوج من تلك الأرملة وهي تحمل كل هذه الضغينة نحوه، ولن تكون له وحتى إن تزوجها رغماً عنها، ولسوف تكشف أمره وتبلغ الجميع بجريمته، لذلك من الأفضل أن يتركها وشأنها، حتى وإن كانت في غاية الجمال.

في تلك اللحظة سمعت أصوات طلقات نارية في أرجاء الجبل، أفزعت خورشيد بك وجعلته يصحو من دهشته. بعد ما يقارب الساعة. عاد رزا وهو يحمل أحد رجاله قائلاً:

- بك، كأن هلمت عرف بما نسعى إليه. هاجمنا ببندقيته، وأصاب حمة بطلقاته وعدنا أدراجنا إلى القرية.

أدرك أن قتل شخص آخر سوف يزيد الأمر سوءاً، وأن أهل القرية لن يغفروا له فعلته. كان عليه أن يجد طريقة أخرى للقضاء على هلمت غير البندقية، لأنه لا يريد أن يتلوث بدمِه.

للحظة أحسّ بالانهيار، لقد فشل في مواجهة هذين الشخصين، كيف لم يقدر على مغالبة هذين الكائنين البسيطين وهو خورشيد بك الذي يرتجف الناس من رؤيته، أمسك بي وشدني بقوة وأسنانه تصطك بين فكيه، انقطع الحبل فجأة، فتطاير الخرز وتناثر في أرجاء الديوان.

الفانوس

كنت معلقاً في وسط الغرفة، فوق الدكة الخشبية التي تتوسط منزل خورشيد بك، ناري الخافتة تضيء لهم سواد الليل، يحيطون بي بوجوههم الجامدة وهم يسردون ما جرى لهم ذلك النهار، يناقشون شؤون القرية وحال الناس وماذا يفعلون، أستمع إلى كل تلك المكائد التي يحيكونها في ديوان خورشيد بك من أجل تنفيذها في صباح اليوم التالي بعد أن يطفئوني، وفي مساء اليوم التالي عندما يشعلونني من جديد يهمسون فيما بينهم بما أنجزوه من الخطط.

في الليالي الأخيرة احتّد النقاش حول شاب يدعى هلمت، كان خورشيد بك يستشيط غضباً من سماع اسمه، يحمل له غيظاً كبيراً. يقفز في بعض الأحيان ويصرح مهدداً (سوف أنتقم منه شر انتقام وأشرب من دمه). وفي الليالي التالية يهزّ رأسه بعنف ويتأسف لعدم قيامه بذلك.

من تلك المؤامرات التي خططوا لها، وأحطت بكل تفاصيلها، وعملوا عليها بكل إتقان. نفذها (رزا) الرجل الذي يعمل لدى خورشيد بك وتدّبر الأمر ليجعله رسولاً إلى هلمت. كانوا في انتظار قدوم سهند - الراعي الجديد لمواشي عائلة هلمت - إلى تلك المأدبة التي أقامها خورشيد بك ودعا إليها عدداً من رجال القرية، ومن ضمنهم هذا الراعي. ما إن دخل سهند إلى الديوان وجلسَ أمام صينية الطعام، حتى دخل محمود إلى الديوان وهو يلهث من كثرة الجري وقد انقطعت أنفاسه والرعب يتملّكهُ، يهتز جسده من رأسِه إلى أخمص قدميه، يقول بهلع أمام الجميع الذين بدأوا للتو في وضع أيديهم في «ماعون التشريب»:

- خورشيد بك، يا سيدي، بك.. أدركني...

تفرس فيه خورشيد باستغراب، وقد رفعَ اللقمة للتو إلى فمه:

- ماذا دهاك، يا محمود، كأن وحشاً قد لحق بك؟

قال، وهو يلهث باستمرار:

- نعم، إنه هو، كما قلت إنه هو وحش.

توقف خورشيد عن الأكل والجميع يحملقون فيه:

- ماذا تقول أيها الغبي؟

- كنت في الجبل حينما، عدّت متأخراً من الرعي بعد أن ضاعت واحدة من ماعزي، وعندما ذهبت للبحث عنها. كنت أظن أن الذئب قد أخذها، ولكنني وجدت شيئاً غريباً يتحرك خلف الأشجار والحشائش.

كان الجميع يستمعون إليه باهتمام وعيونهم زائغة، أما سهند فقد بدا الجزع يدخل إلى قلبه ولاسيما أنه راعٍ أيضاً.

- ثم فجأة، ظهر وحش غريب الشكل وجهه مملوء بالبثور! توقفت في مكاني وأنا أحملق فيه. تملكني الرعب، لم أستطع أن أتحرك من مكاني فقد جفّ الدم في شراييني عندما رأيت الوحش وقد التهم نصفها وراح يحملق بي. وقعت في مكاني. ولكنه، تركني ورحل.

صرخ خورشيد في وجهه:

- أكاذيب كل ما تقوله؟

- إن لم تكن تصدق، فانظر بنفسك إلى الماعز، وكيف التهمها.

خرج محمود إلى فناء المنزل، يتبعه الجميع وقد تركوا عشاءهم الذي كان من لحم الماعز، حملني خورشيد بك عن الدكة التي علقني عليها، معه إلى الخارج لأنير لهم الفناء. شاهد الجميع الماعز ملقاة على الأرض، وقد تقطعت أوصالها ورأسها المبتور مازال معلقاً قليلاً بجسدها.

فزع الجميع مما رأوه، وانتابهم الفزع وهم يحركون الماعز التي التهم الوحش نصفها كما أخبرهم محمود. قرّبني خورشيد من الماعز ليحملق فيه بإمعان. كان جلدها ممزقاً وآثار الخدوش بارزة وواضحة للعيان. لم يدم الأمر كثيراً حتى ظهر رزا من العتمة واقترب من الرجال وقد تملكه الهلع:

- خورشيد بك... خورشيد بك... لقد رأيت شيئاً غريباً...إنه هيكل كبير... جسد وحش...

رفعني خورشيد في وجه رزا ليرى الجزع على وجهه، وقال:

- يبدو أنكم رأيتم الوحش نفسه أنت ومحمود... انظر إلى الماعز التي قتلها الوحش.. أين رأيته، أخبرني؟

أشار رزا إلى الجبل وهو يلهث متقطع الأنفاس:

- في الجبل، على مقربة من بساتين التين، كنت عائداً في طريقي حينما لاحظت شيئاً غريباً في طرف الجبل، وفجأة برز وحش كبير بين الصخور، أراد أن يهاجمني. ولكني حينما صوّبت بندقيتي إليه فرّ بسرعة نحو الجرف.

قال خورشيد بعزم:

- يجب أن نقضي عليه قبل أن يقتل أحداً منا، أحضروا البنادق بسرعة لنصعد إلى الجبل حالاً، ونعثر عليه.

انتشرت القصة في أرجاء الوادي، وسرى الهلع في القرية المنزوية تحت الجبل، وبدأ الناس يتناقلون فيما بينهم أن وحشاً كاسراً ظهر في الجبل. وخلال وقت قصير تجّمع الرجال وطلبوا إلى مَن في القرية أن يعدوا أنفسهم للغريب المجهول. كان خورشيد بك وأعوانه يتحدثون فيما بينهم أنهم سمعوا من أجدادهم أن هناك وحشاً يسكن أعلى الجبل قد ظهر فيما مضى وقتل عدداً من القرويين سابقاً. ها هو يبرز من جديد.

حمل الرجال البنادق على أكتافهم والفانوس في اليد الأخرى، وتسلقوا الجبل، كان خورشيد بك يسير في المقدمة يحملني في يده، كأنه لا يخشى وحشاً قد يهجم عليه. الوحيد أنا الفانوس الذي كنت أعرف ما يدور، لم يكن إلا مكيدة من مكائد خورشيد من أجل نشر الهلع في نفوس الناس، وزرع الخوف في قلب هلمت من أجل أن ينزل عن الجبل بعد أن يسمع بتلك القصة التي اختلقها خورشيد.

صعدوا إلى الجبل وانتشروا في أنحاء السفح جماعات متراصة، مقتربين من بعضهم بعضاً، والجزع يتملكهم من أجل إلقاء القبض على الوحش الذي يزعمون وجوده. سمعوا طلقات نارية تأتي من هنا وهناك، كان من أطلقها، هما محمود و رزا حتى يزرعان الرعب في نفوسهم ومن بينهم سهند الذي كان يرتعش كثيراً لأنه رأى الهلع بأمّ عينيه في وجه محمود ورزا والماعز المنهوش. كانت خطة خورشيد بك تجري كما خطط لها، وقد نشر الخوف في أرجاء الجبل.

ليلتها عادوا إلى القاع فارغي الأيدي، فقد خمّن سهند أن أقدام الوحش الضخمة، وساقيه الطويلتين كانتا كفيلتين بأن تساعداه على قطع مسافة طويلة في فترة قصيرة والهروب إلى مكان أخر. ولكن خورشيد قاطعه باهتمام وصوت عالٍ:

- ولكنه ربما يعود إلى هنا مرة ثانية.

ردّ رزا مؤيداً قول خورشيد:

- نعم، ربما سيعود بعد أن وجد طعاماً مناسباً في هذا الجبل.

أيده محمود قائلاً:

- بالتأكيد سوف يعود، إنه وحش كاسر لن يردعه ويقف في وجهه أحد ما لم نتكاتف جميعاً.

كانت أحداث تلك الليلة كافية أن تزرع الهلع في قلوب عائلة هلمت، خافوا أشد الخوف على ولدهم المنفي في ذلك الجبل، عليه أن ينزل وإلا فالموت سيكون مصيره.

بدأ ضياء الشمس يتسللُ من خلفِ الجبال، والفجر يبرز من سفح المنحدر بعد أن قضى الناس ليلتهم في ملاحقة ذلك المجهول. وما إن بزغ وجه الشمس حتى طلبت خجاو إلى سهند أن يصعد الجبل لإخبار هلمت بأمر الوحش. ولم يهدأ لها بال حتى وجدته يصعد إلى الأعلى والرعب يتملكه من أن يقدم الوحش على مهاجمته في أي لحظة، ارتقى الصخور بحذر في محاولة يائسة لإيجاد هلمت والطلب إليه العدول عن قراره والنزول من دون نقاش إلى القرية بسرعة والا

فإنه هالك.

أشعل خورشيد النار في جوفي وأنرت له الغرفة لليلة أخرى، أخذ يسير في أرجاء الديوان قلقاً ينتظر رزا ليجلب له سهند من جديد. ليستطلع منه ما جرى بينه وبين هلمت وهل أقنعه بالعدول عن عناده. بعد انتظار طويل. جلبَ رزا سهند وهو يمسك بأضلعه، دهش خورشيد قائلاً:

- لماذا تمسكه هكذا، يا رزا؟

- لا يريد أن يأتي معي. لقد كان خائفاً من أن يخرج في الليل، وقد جررّته إليك جراً.

كان سهند مدهوشاً من تصرفات خورشيد بك، لماذا يطلبه في مثل هذا الوقت، ابتسم له خورشيد وقال:

- سهند، لم أستطع أن أتناول الطعام هذا اليوم.

استغرب منه سهند، أكمل الرجل:

- لقد تركنا العشاء البارحة، ولم نكمله وصعدنا إلى الجبل. وليس من شيمي أن أدع مضيفاً يترك عشاءه من دون أن يشبع. طلبت إليهم أن يعدوا لك عشاءاً شهى، اتركه، يا رزا، واجلب الطعام فأنا جائع جداً.

خرج رزا ليجلب الطعام، بينما انتظر خورشيد بك بشغف ليسمع ماذا قرر هلمت بعد تلك الحادثة التي هزّت أرجاء القرية والجبل. بعد أن أكملوا العشاء سأله خورشيد عن هلمت فأخبره سهند:

- لقد طلبت إليّ أخته أن أصعد الجبل لأحذر هلمت وأحثّه على النزول، فالأمر خطير كما ترى. وعندما تسلقت الجبل، لا أخفي عليكم فقد كنت في أشد الخوف، فأنا أصعد الجبل في وهج الظهيرة. بعد جهد مضنٍ وجدت هلمت مستلقياً تحت شجرة بلوط. أخبرته بالقصة كلها. استغرب كثيراً من القصة ولم يصدق، وقال: إنه قضى قرابة العام في هذا الجبل ولم يرَ ما يصفون. وحتى أنه لم يبالِ، وإنما سخر من كلامي.

استشاط خورشيد غضباً:

- ماذا تعني بقولك هذا. ألم يصدق ما جرى؟

رأى سهند الغضب على محيا خورشيد بك فاستطرد:

- أعني أنه قال. لن أعود ما لم أر هذا الوحش بأم عيني إن كان حقيقياً، وقال إنه لو صادف هذا الكائن سوف يقضي عليه ببندقيته ولن يخاف منه وسوف ينقذ القرية من وجوده. وإن لم يتمكن منه لسوف يعود إلى القرية.

تركَ خورشيد الطعام بعد أن ضاق ذرعاً بما سمعه. فما كان من رزا سوى أن توقف عن الطعام، فمن عادة القرويين أن يتوقف الضيف عن الطعام ما إن يتوقف المضيف. أما سهند فلم يتوقف، وإنما استمر في الأكل بشراهة.

النار

أنا كالبشر أولد من شرارة، وأموت لو انقطع الهواء عني. أؤذي من يقترب مني، عدوي الماء الذي طالما حاربته ولم أستطع التغلب عليه، أشعلت باطن الأرض وشققت قشرة السطح، هيجت البراكين وفارت لتجتاح الأرض لعصور طويلة، تسيل في كلِ الاتجاهات وتغطي السهوب والجزر، وفي النهاية خمدتُ، وغمرتني البحار والأنهار ولم أعد قادرة على التغلب على المياه التي سيطرت على الأرض. ولكنني ما أزال أنتظر أن أشتعل من جديد لأحرق كل شيء أمامي.

جاء رجل ملثم بكوفية، يلتفت يميناً ويساراً وفي يده شعلة، يبدو أنه يريد أن يتم أمراً في الخفاء، أوقد جمرتي بسرية تامة من دون أن يدري به أحد، وضعَ الشعلة تحت الأعشاب المنتشرة فاستعرتُ، وولدت من جديد، لألتهم بسرعة كل ما حولي من العيدان والحشائش اليابسة والأشجار. كولادة طفل يصرخ بقوة، ويلتهم ثديّ أمه بشراهة، هكذا كانت شرارتي الأولى، وفي لحظة، اختفى الرجل.

بعد أن التهمتُ الحشائش المنتشرة، رحتُ أصعد إلى السفح، محاولاً بلوغ قمة جبل هلكورد، الذي يمتدّ بعيداً. إنه المكان المناسب ؛ إذ تساعدني الرياح القوية على الانتشار في الأرجاء كالبرق.

تصاعد الدخان الأبيض أولاً، ثم بات أسود، ورأيت من بعيد الرجل الذي أوقد جذوتي يدخل القرية التي تقع أسفل الجبل، بعد أن نزع اللثام عن وجهه، كان هناك رجل عجوز يسأله:

- أخبرني ماذا فعلت، يا رزا.

قال بتردد، والخوف يهزُّ جسده كأنه عمل كبير وخطر، خطورة ولادتي:

- لقد فعلتها، سيدي، فعلتها كما أمرت.

قال خورشيد، وهو يمسك ذراعه:

- الآن اذهب واغرب عن وجهي، لا أريد أن أراك.

بدأت الطيور تغادر الأغصان، تركت فراخها في أعشاشها من دون أن تجد متسعاً من الوقت لحملها، من هول النار التي بدأت تتسع، الحيوانات والجراء والسحالي والثعابين بدأت تخرج من مخابِئها، وهي تحاول الفرار مني لا تعرف إلى أين تولي الأدبار. كنت في ذروة اتساعي وانتشاري، تملكني الفضول، لأعرف سبب ولادتي من قبل هذا الذي يدعى خورشيد بك في تلك القرية. تصاعد شغفي وارتفع معه لهيب ناري في الأفق لأجد خورشيد بك يدخل وسط القرية وهو ينادي:

- يا أهل القرية، اخرجوا بسرعة... نار ... هناك نار في الأعالي.

خرج الناس سريعاً من منازلهم. واحداً تلو أخرى، يستطلعون ما يجري حولهم، هلعوا، وهم يشاهدونني أغزو الجبل وأقترب منهم. شعروا بالخطر المحدق بهم، بدأوا كالنمل ينتشرون في الجهات كلها، كل واحد يندفع إلى الداخل ليخرج علبة من الفناء مملوءة بالماء ويتوجهون صوبي في محاولة لإخمادي. الرجال والنساء والأطفال والعجائز يحاولون بشتى الطرق أن يوقفوا تقدمي لئلا أصل إلى منازلهم.

دهشت من فعل خورشيد بك، لماذا عمدَ إلى إشعالي في هذا السفح الممتد،

والآن يحث أهل القرية! ما الذي يسعى إليه. لم أكن أملك لساناً، لأبلغ هؤلاء الناس بنوايا هذا الرجل الذي يلعب بهم. اصطف الرجال واحداً تلو الآخر ينقلون دلاء الماء من القرية إلى الأعلى، ويرشقونني بالماء في محاولة لإخمادي، والنساء جلبن الفرش والملابس، وبدأن يضربنني من أجل حماية أرضهن، والأطفال يحملون فروع الشجر وهم يطفئونني.

كانت الجلبة والنداءات وصياح الرجال تختلط بصوت استعاري و أنا أحاول جاهدة، كانت الريح تساندني في التغلب.

في خضم هذا الصراع بيني وبين البشر الذين يحاربونني حينما أكبر وأنتشر، ولكنهم أيضاً لا يستطيعون العيش من دوني، وجدت خورشيد بك واقفاً أمام النار يحملق بزهو كأنه قد قام بعمل عظيم كبير، وهو الوحيد الذي لم يشارك في إخمادي، وفجأة ظهر الرجل الذي أرسله خورشيد لإشعالي وهو ينشر خبراً بين الناس بصوتٍ عالٍ :

- إنه هلمت... هلمت من أشعل النار.

مع أنني لم أكن أعرف هذا الذي يدعى هلمت، إلا أنه كان يكذب على الناس، فهو من أضرمني قبل قليل، تلّفت الناس حولهم وهم يسمعون هذا الخبر بدهشة كأنهم لا يصدقون ما يقوله، فهم يعرفون أن هلمت لا يمكن أن يشعل النار في الجبل.

صاح الرجل مؤكداً:

- لقد رأيته بأم عيني، هلمت هو من أشعل النار وهربَ بعيداً .

انتشر الخبر كانتشار النار في الهشيم بين أهالي القرية، الذين بدأوا يهمسون و يتساءلون:

- هل حقّاً هلمت أضرم النار؟

- ولماذا يفعل هذا؟

- هل يعقل أن يفعل هذا! ما هي غايته؟

لحظتها جاءت الفرصة سانحة، فاغتنمها خورشيد بك، وقال:

- لعله أراد بفعلته هذه أن يُخرج الدب من وكره !

التفت الناس حولهم وهم يحملقون في خورشيد بك تارة، ونحو النار تارة أخرى وهم يتساءلون:

- الدب ... هل أراد أن يخرج الدب من وكره بالنار.

لم أفهم من هو الدب، ومن هو هلمت، فكل ما خرج من الجحور لم يكن سوى الطيور والحيوانات الزاحفة، ولم أشاهد إلى الآن أي حيوان ضار. تصاعدَ صوت خورشيد وهو الذي اختلّق القصة برمتها، ليخبرهم:

- ولمَ لا؟ فقد ملَّ من ملاحقة الدب، وقد فعل هذا من أجل أن يقبض عليه.

استنكر أهل القرية ذلك:

- ولكن، من خلال إضرام النار في هذا الجبل! والقضاء على كل ما هو موجود!

بدأت أتراجع شيئاً فشيئاً، لم أعد أقوى على مجابهتهم وهم يحاولون بشتى

الطرق إخمادي، وكدت أن أنتهي وأنا أسمع صوت خورشيد وهو يخطب في الناس:

- لقد بلغ السيل الزبى... لم نعد نحتمل ما يفعله هلمت يجب إيقافه.

- وماذا نفعل؟ إنه عنيد ولا يصغي إلى أحد!

تجّهم وجه خورشيد وهو يتوعد بالانتقام:

- لن يمر هذ بسلام على هلمت، يجب أن ينزل.

قال سكان القرية:

- نعم يجب أن ينزل. إنه بات يجلب لنا المشكلات.

كانت أطرافي تخمد في كل الأماكن وفعل الماء فعلته مرة أخرى، استطاع الناس إطفائي بعد أن ولدت بسويعات وانتهى وجودي في لحظة.

آخر ما سمعته من خورشيد بك وهو يهدد وأنا أتلاشى من جديد:

- سوف أقتله، إن لم ينزل من الجبل.

صباح اليوم التالي انتشر أهل القرية في محاولة للبحث عن هلمت ومحاسبته على ما فعله، إلا أنهم قطعوا الجبل يميناً ويساراً ولم يجدوا له أثراً. ثم سألوا أحد الرعاة، فأخبرهم أنه غادر المكان منذ أسبوع إلى الطرف الآخر من الجبل ولم يراه منذ ذلك اليوم. فتأكدوا أن هلمت لم يكن هو من أشعل النار.

السمكة

كنا نعيش في المياه الجارية السريعة التي تسير بين الجبلين. توارثنا عن آبائنا السباحة بسرعة عكس التيار، ولذلك فإن أجسادنا نحيلة وزعانفنا طويلة. نصارع جريان الماء المتدفق من ينابيع الجبال الباردة. نبحث عن العوالق والحشائش والطحالب بين الصخور، نقتات منها ونلاحق بعضنا بعضاً من دون هوادة.

جل ماكنا نخشاه، هو الصيادون الذين يجلسون على اليابسة أوقاتاً طويلة، ويلقون شباكهم في الماء، يعلقون عليها دودة طعماً، لتجر سمكة غبية، حينما تلتهم الدودة، يعلق الخطاف في فمها، فتحاول أن تتحرر منه. ولكن الصيادين أسرع منها، يسحبونها من الماء، لتموت وتنتهي في بطونهم .

يوم الجمعة كان يزور الجرف رجل أشقر، يحب الصيد كثيراً ، يجيد رمي السنارة إلى أبعد ما يكون في وسط النهر. يأتي وحده عادة، و يرافقه بين حين وآخر رجلان هنديان يساعدانه في الصيد ويرمون بسنارتيهما في النهر .

ذلك اليوم حضر الأشقر وحيداً عند الجرف. ورمى بسنارته إلى الماء وقد ألصق بخطافها دودة شهية تجذب الأسماك، ولكننا نخشى الاقتراب. كنت أحملق فيه من خلال سطح الماء. بعد هنيهة، اقترب منه رجل من الخلف يحمل بندقية وصوّبها نحو رأسه، ودارَ بينهما جدال حاد، قال الرجل:

- أنا قادر صديق سردار الذي قتلته، وحان الوقت لأنتقم له.

ردَّ عليه الأشقر وقد رمى سنارته خوفاً من الرجل الغريب، إذ لم يكن هناك أحد حوله يساعده في محنته، قال متلعثماً:

- ولكنني لم أقصد إيذاءه، أردت أن يسلم نفسه، فقد قتل السائق.

قال قادر بعصبية:

- أنت أمرت الجنود أن يهجموا علينا، ويقتلوا عدداً من أقاربنا.

تمتمَ الأشقر بكلمات غير مفهومة، وعيناه تجولان حوله في جزع، آملاً أن يجد شخصاً ما ينقذه من هذا الغريب، اقترب منه قادر، وأشار بيده نحو الماء، قائلاً:

- اقفز إلى الماء...

لم يفهم الأشقر لماذا يطلب إليه ذلك، وقال متوسلاً:

- ولكن لماذا، لا أستطيع السباحة في هذا الماء الجارف! فرد عليه قادر مبتسماً:

- هذا ما أريده، أن تموت غرقاً، ولا يعلم أحد أنني أنا من قتلك.

خافَ الأشقر من أوامر الغريب:

- ولكن سيعلم الناس بذلك...

استشاط قادر غضباً، وصرخ به:

- اقفزْ سريعاً في النهر، إن استطعت السباحة، ستعيش، وإن لم تستطع، فهذا قدرك.

لم يستطع الإنكليزي مواجهة الرجل، ولم يكن هناك من ينجده، صرخ به قادر منذراً:

- اقفز...وإلا سأطلق النار على رأسك.

لم يكن أمام الإنكليزي من خيار سوى أن يلقي نفسه في مياه النهر المتدفقة، طلبَ إليه الرجل أن ينزع ملابسه ومن ثم يقفز، عند ذلك سيظن الناس أنه غرق وهو يسبح، ولكنه لم يمتثل، فما كان من الرجل إلا أن دفعه بقدمه إلى النهر.

لحقنا به نحن الأسماك ورأينا الأشقر يتخبط مستميتاً في مواجهة التيار الجارف، لكنه لم يستطع النجاة، فقد تجمّد الدم في عروقه من شدة برودة الماء، واستسلم للتيار وهو يجرفه على هواه، كان جسده يرتطم بالصخور الملساء، فتتكسر أضلاعه، وأخيراً علقت جثته بين الصخور.

عند المغيب جاء الهنديان يتفقدان رئيسهما الذي تأخر في العودة، وجدا عدّت الصيد على ضفة النهر، فأدركا حينها ما حل برئيسهما. تخبطا وأخذا يدعوان الناس إلى البحث عن جثة الإنكليزي. بعد ساعات من البحث في جانبي النهر، عثرَ رجال القرية على جثته بين الصخور وقد انتفخت بطنه لكثرة ما شرب من الماء.

الضبع

كنا مجموعة صغيرة نتجول في الجبال، وننزل السهول ليلاً بحثاً عن فريسة نقتسمها فيما بيننا، نتجول من مكان إلى آخر نعبر من جبل إلى جبل، رغم قلة الطرائد إلا أننا لم نكلّ في بحثنا، نخرج في الليل، ونختفي في النهار عن الأنظار، ونحذر من ملاقاة البشر، فهم مفترسون شرهون أكثر منا، ولا نقوى على مغالبتهم، فكم مرة وقعنا تحت أنظارهم وكادوا أن يقتلونا بآلاتهم الغريبة القاتلة! ولكننا استطعنا الفرار بسرعة، تمنيت أن أقبض على بشري أمزقه شر تمزيق بمخالبي وأنتقم منه، وهذا ما حصل، يومها كنا نتجول في جبل يدعى هلكورد الشاهق، حيث نستطيع أن نتجول في أنحائه بحرية فالبشر يهابون تسلقه. ولكن ذات يوم وجدنا رجلاً يحمل تلك الآلة التي تدعى البندقية، إن أصاب أحداً سوف يرديه قتيلاً فوراً، لذلك كنا حذرين منه. ذلك الشاب الضعيف كأنه غصن يابس من شجرة جنار، كان من السهلِ الانقضاض عليه، إلا أن أننا كنا نهاب سلاحه، لذلك توخينا الحذر وكنا نراقبه من بعيد، فإذا تعثر أو غفا سننقض عليه.

Telegram:@mbooks90

وفي طريقه وقعت عيناه على بقايا غزال كنا قد التهمنا أغلبه، فقد اصطاده نمر مرقط جاء من الطرف الآخر من الجبل، وما إن شبع من تلك الجثة، أخذ يراقبنا، وهو يدرك أننا ننتظر أن ينتهي من طعامه كي نحصل على حصتنا أيضاً، ترك فريسته، وراح يتسلق الجبل مبتعداً. فلم يكن منا إلا أن أطبقنا على ما تبقى منها.

بعد أن رأى الشاب الجيفة على السفح، قال:

- إنه الدب، لقد وجدته أخيراً.

لم نفهم ما يقصد بالدب، فلا يوجد دب في هذه الأنحاء، هذه جثة غزالة

افترسها النمر! ترك الجيفة و تسلق إلى الطرف الذي ذهب إليه النمر. يبدو أنه كان يلاحق دباً، وظنّ أنه هو من قتل هذه الغزالة. لحظتها دعيت قطيعي قائلاً: إن هذا الرجل سيكون وجبتنا التالية. إن لم نقدر نحن على القضاء عليه، فالنمر سيقضي عليه حتماً.

صعد الجبل الوعر بصعوبة فهو لا يملك أربعة أرجل مثلنا، يحملُ تلك الآلة القاتلة التي كنا نخاف منها، فكنا نلاحقه، ونراقبه من بعيد.

رغم خطورة الجرف، إلا أنه لم يكن عائقاً أمام الشاب في البحث عن فريسته، وجد نفسه على حافة نتوءات صخرية بارزة من الجبل، توقف هناك يتلمس أثر الحيوان الذي يلاحقه، يجول بعينيه في كل الأطراف ولكنه لم يجده، استمر في الصعود من دون كلل أو ملل، يسير بتأنٍ بين الحواف الخطرة، فأي تعثر قد يودي بحياته من المرتفع الشاهق، شاهد من بعيد النسر وهو يحلّق عالياً، فأدرك أنه قد بلغ علواً كافياً لاصطياد فريسته، في كل خطوة كان يلتفت في كل الأرجاء باحثاً عن الدب، ولم يكن هناك أي حركة. كلما صعد إلى الأعلى كنا نتمنى أن يتعثر ويقع من ذلك العلو؛ لننقض عليه بعد أن تتكسر جميع أوصاله.

بعد أن تسلق عالياً، تقطعت أنفاسه، وشعر بالتعب، أراد أن يستريح قليلاً. فجأة سمع صوت النمر من الطرف الآخر، اقتربَ منه النمر، تجمّدت أوصاله كلها وهو لا يدرك ما يراه، كشر الحيوان عن أنيابه وهو يحملق في الشاب بحدة، أما الشاب فقد وقف في مكانه وجلاً يحدق في عيني النمر البراقتين، كأنه لم يرَ في حياته حيواناً على هذه الشاكلة وهذه العيون البراقة، لقد سحرته عيناه، وتملكه الفزع، لا يعرف ماذا يفعل إزاء هذا الحيوان الشرس، الذي لا يملك رحمة ولا شفقة. تشبّث بأحد النتوءات الصخرية وهو يتراجع ببطء، حين ذاك علم أن

تلك الطريدة كانت فريسة هذا النمر الجبلي، سمع من قبل أن النمر يسكن هذا الجبل، ولكنه لم يصادفه قط، وها هو يقابله وجهاً لوجه. أحسّ أن نهاية حياته قد اقتربت، والنمر يفتح عينيه على اتساعهما مترقباً أن ينقض عليه. ظلّ النمر ثابتاً في مكانه بلا حراك، متأهباً لغرز أنيابه في جسد ذلك الشاب في أي لحظة ضعف يقع فيها، كنا في انتظار أن يغرز النمر أسنانه الحادة في عنقهِ، إنه كائن كبير، و لن يقدر أن يلتهمه كله، وسيتركه لنا. كنا نترقب بإمعان ذلك المشهد الذي لم نشهده بين أشرس الحيوانات المفترسة في هذا البقعة من الأرض.

مرت لحظات كانا فيها يحملقان في بعضهما بعضاً، ينتظر كل واحد منهما أن يبدأ الآخر الانقضاض. تمنى الشاب أن يبتعد النمر عنه ويتركه وشانه، إلا أن النمر كان متوجساً وخائفاً من أن يغدر به، ولاسيما أنه يحمل بندقية. أسر جمالُ ذلك الحيوان الشابَ فلم يرد أن يقتله، ولكنه لا فكاك، فكل واحد يحاول أن ينجو بنفسه بكل الوسائل. بعد أن أدرك الرجل أن النمر بقي ثابتاً لم يتزحزح قيد أنملة من مكانه، وإنما اقترب منه خطوتين، أدرك حينها أن لا حل له سوى أن يطلق عليه النار. رفعَ البندقية صوبها إليه، ثم فجأة أطلق النار عليه، فلعلع الصوت في أرجاء الجبل كأنه قنبلة صاروخية تصم آذان الحيوانات، فما كان من النمر إلا أن يولي الأدبار، ويطلق العنان لقدميه نازلاً من الجبل ناحية الجرف واختفى بسرعة خلف الصخور. حينها تعثر الشاب من جراء اندفاع الطلقة من البندقية وتراجع من مكانِه ليتزحلق عن الجرف ويميل من مكانه ويتدحرج ساقطاً نحو الأسفل، وتوقف بعد خطوات أمام صخرة كبيرة.

حينها أدركنا أن الوقت قد حان، رغم أن النمر لم يتغلب عليه، إلا أن وقوعه من هذا العلو الشاهق ربما أودى بحياته، وسنلتهمه. انطلقنا نحوه بشراسة وتسلقنا

الجبل واقتربنا منه قدر الإمكان، انقشع التراب من حوله، وجدناه مستلقياً في مكانه وقد أغمي عليه، اقتربنا منه وكنا على بعد خطوتين لننقض عليه، شاهدنا الآلة القاتلة على مقربة منه، كنا متوجسين وخائفين من أن يقتلنا بسلاحه. خفخفت مجموعتي وهم يحملقون في طريدتهم لعله قد مات، ينتظرون أن يدوم سكونه، ولكنه حرك جسده بعد أن سمع خفخفتنا وعلم أنه محاط بمجموعة من الضباع. كانت الدماء تغطي وجهه، التفّت حوله وشاهد البندقية قربه، وهذا ما كنا نخاف منه، زحف وأمسك بالبندقية وأطلقَ علينا النار، فولينا الأدبار هاربين.

من بعيد شاهدنا رجلين يقتربان نحوه، يبدو أنهما سمعا صوت طلقات الرصاص تمزق سكون الجبل، كانا يرعيان أغنامهما على مقربةٍ من المكان، اقتربا من الشاب وساعداه على النزول من الأعلى.

الكهف

كنت أرنو بصمت إلى القرية القابعة تحت الجبل، أتأمل حكاياتهم المختلفة، حركة الناس ومعيشتهم وحياتهم، أما قصة هلمت الذي كان ينط كالأرنب من مكان إلى آخر بحثاً عن ضالته التي لم يجدها إلى الآن، وهاهم قد جلبوه محمولاً على عدد من الأوتاد الخشبية والدم يسيل منه. عرفت الرجلين في الحال، إذ كانا راعيين يرعيان الماعز في الأرجاء الممتدة، وضعا هلمت في مدخل الكهف وهو يئن، وراحا يتوسلان إليه أن يأخذاه إلى الأسفل حيث القرية ليعالجوه هناك، إلا أنه أبى أن يتخطى القرية:

- بقاؤك هنا لن يجدي نفعاً، سوف يتقرح جرحك.

قال هلمت، وهو يئن من الألم:

- لن أنزل إلى القرية مهما حصل، ولو كلفني ذلك حياتي، سأموت هنا، ولن أدخل القرية.

- لماذا أنت عنيد إلى هذه الدرجة؟ فأنت مصاب وسيتفهم الناس حالك ولا داعي إلى كل هذا التعنت.

- لا، سأقطع قدمي هذا إن وطئت تلك القرية. سرهد، اذهب وأحضر الحكيم واجلب من الأدوية ما يلزم من أجل تجبير الكسر.

لم يعرفا كيف يقنعان هذا الشاب، أصر أن يُطبب في الكهف ولا يتعدى حدود القرية، سالت دماؤه على أرضي. ذهب سرهد إلى الوادي ليجلب الطبيب. أما شوان فقد ظلّ مع هلمت وأشعل النيران في داخلي وامتلأ جوفي بالدخان من

أجل هلمت الذي بدأ يحس بالبرودة في هذا الجو القارس.

كان أنينه يحوم بين جدراني ويتردد صداه بين طياتي، فأحس بمدى ألم هذا الرجل. بعد فترة وجيزة صعد الحكيم مترنحاً يتسلق الأحجار نحوي يلاحقه سرهد وهو يحملُ مستلزماته الطبية، يتبعه رجل وامرأة على ما يبدو أنهما من أقرباء هلمت.

بعد أن جبروا له ساقه، ووضع له الحكيم الدواء قال لهلمت:

- بقاؤك هنا خطر عليك. فالجو بارد وسيؤدي إلى التهاب ساقك، وهذا خطير جداً.

ربّت هلمت على ذراع الحكيم وهو يئن في مكانه:

- لقد أديت مهمتك. أشكرك لأنك تكلفت عناء صعود الجبل. أنا آسف لأنني أرهقتك ... سامحني.

- كيف أسامح شخصاً طائشاً مثلك. القرية كلها علمت بما أصابك، ولا يجب عليك المكوث هنا أكثر.

هزَّ هلمت رأسه بالنفي. وتعجب الحكيم من تعنته. طلب من أحد الأشخاص البقاء مع هلمت لحمايته ومداراته إلى أن يشفى.

- اسمعني جيداً ليس عليك الحراك، من مكانك لمدة شهر كامل ولو قدم الدب أمام ناظرك. تبقى ساكناً إلى أن تتحسن قدماك.

- لا تقلق، سأتدفى، ولا أحتاج إلى أحد إلى جواري.

ظلّ كاردو عنده تلك الليلة والليالي التالية، يداريه ويهتم به في الكهف، أما أهالي القرية فقد كانوا يزورونه بين فينة وأخرى يطلعون على حاله، وهم يرون بأس هذا الولد الذي يتمسك بكلامه ولا يحيد عنه قيد أنملة. زاره الحكيم مرات عدة يطمئن إلى حاله ويعطيه العلاج اللازم ويفحص قدميه ويداوي جرحه. أصبح الكهف مثل المشفى من أجل ذلك البشري الذي ظل في جوفي لأيام عديدة.

ذات يوم دخلَ الكهف شاب في مقتبل العمر، وهو يحمل حقيبة مملوءة بالمؤن والمتاع والملابس وفرشها على الأرض أمام هلمت، تعرّف إليه هلمت في الحال، كان سيامند ابن خورشيد بك. كان التعب والإعياء يظهران على محياه، في وجهه حزن عميق لم يألفه هلمت من قبل، كان نحيف البنية وقد نبتت لحيته للتو، وراح يتأسف ويهزّ رأسه بألم. رحب به هلمت وأقعده أمامه، بعد هنيهة سأله عن سبب مجيئه. استطرد سيامند والدموع تترقرق في عينيه:

- إنه والدي، يمنعني عمّن أحب، لقد طلبت يد هوزان بنت خدر إلا أنه رفض رفضاً قاطعاً وقال: لن اسمح بهذه الزيجة، حتى في أحلامك، فما كان مني إلا أن أخبرته أنني سوف أذهب إلى الجبل مثل هلمت، ولن أعود مالم تزوجوني تلك الفتاة.

- أتقصد أن والدك يعلم بوجودك هنا.

- نعم لقد أخبرته بذلك.

استشاط هلمت غضباً:

- أيها المعتوه، إنك تجلب لي المشكلات. ليس لدي خان لاستضافة أمثالك.

ثم ضحك هلمت من تصرفه، أعجَبته جرأة الشاب في مواجهة والده العنيد الشرس. إذ هرب والتحق به في الجبل.

حول النار جلس سيامند أمام هلمت يقصُ عليه قصته مع تلك الفتاة: كما تعلم إن هوزان بنت خدر، وقد قدموا من قرية تقع خلف الجبل، لا نعرف أصلهم، هناك حكايات عديدة عن والد الفتاة، الذي التجأ إلى القرية فيما بعد، يقولون إنه طرد من عشيرته بسب قتله رجلاً.

لقد جاء إلينا قبل سنوات، وطلب إلى أبي أن يمنحه حق الجوار ويحميه، فما كان من والدي إلا أن أعطاه مسكناً، ومنع أي شخص من أن يمس تلك العائلة بسوء. ومنذ أن قدموا إلى هذه القرية وقلبي واقع في حب بنت خدر، عيني لاتعرف المنام مالم أرَ هوزان كل يوم. لم يعلم أبي بذلك إلا من خلال رزا الرجل الذي يعمل مع والدي، علم بما بيني وبين الفتاة، فأخبر والدي، وحينما تحدّث أبي معي في الموضوع، انتهزّت الفرصة ليلتها وجمعت كل قوتي وأخبرته أنني سوف أتزوج تلك الفتاة، فبادرني والدي بصفعة قوية، واستشاط غيظاً، وقال: إننا لانعرف هذه العائلة، ونحن أبناء خورشيد بك ويجب أن نقترن بفتيات من عائلات ذات حسب ونسب ومن ثَمّ أخبرني أنه علي أن أتزوج ابنة عمي فرفضت ذلك رفض قاطعاً. لم يهدأ بال والدي، وحجزني في غرفتي أيام عدة، ومنعني من أن أخرج من المنزل. شقّ الأمر على والدتي ولم تتحمل ما أعانيه، ففتحت لي الباب لأهرب من الدار، شاهدني والدي أمام المنزل والرجال خلفه، يومها تذّكرت إصرارك على تحقيق مطالبك، كان والدي في أشدّ حالات غضبه قال بصوت عالٍ: إنه السبب؛ لأنه أعطى الأمان لهذا الرجل، وهو الآن يريد أن يخرب عائلتنا، لم

يكن لدي ما أجادل به والدي سوى أن أقول له:

- سوف أرحل إلى الجبل، ولن أعود من الجبال مالم تزوجوني هوزان. حينها غضب والدي وأطلق النار في السماء، فجريت بسرعة حتى وصلت إلى أعالي الجبل حيث تسكن أنت.

تنفس هلمت الصعداء، رغم أنه كان يكره خورشيد بك إلا أنه استطرد:

- ربما يكون والدك على حق... إنكم لاتعرفون سر تلك العائلة، ربما خدر يكذب في قوله إنه طرد لأنه قتل رجلاً.

- خدر نفسه لا يهمني، أريد أنا أتزوج ابنته.

- ولكن والدك له شأن في القرية، سوف يؤثر ذلك عليه.

قام سيامند من مكانه غاضباً، وقال:

- لا، لن أتزوج غير هوزان، وليكن ما يكون. سوف أترك هذه القرية إن تطلب الأمر ذلك. المهم أن أتزوج الفتاة التي أريدها.

هزَّ هلمت رأسه وهو يحملق في شاب ولهان لا يعرف التراجع.

ظنَّ سيامند أن بقاءه في الجبل سوف يلين قلب والده الذي قُدّ من صخر، ويقبل بزواجه من تلك الفتاة. انتظر سيامند أن يصعد خورشيد بك إلى الجبل ويطلب إليه النزول ليذعن لطلبه ويذهب إلى بيت خدر لطلب يد ابنته. كان سيامند يحوم في جوفي والقلق يلازمه وقد مرّت أيام عدة من دون أن يأت من والده أي خبر. ولم نعرف ماذا يحدث في القرية، ولم يأت أحد لسماع أخبار

سيامند لا من عائلته ولا من رجال خورشيد، إلا أنهم كانوا يعلمون أن سيامند يرافق هلمت ولربما هذا جعلهم يرتاحون؛ لأن هلمت يستطيع أن يحميه من أخطار الجبل، أما والده، فقد تمسك بكلامه ويبدو أنه لن يتنازل عن رفضه لتلك الزيجة.

كان جرح هلمت يندمل ويشفى يوماً بعد يوم، ينهض من فراشه يساعده سيامند، ليسير خطوات عدة في أرجاء الكهف، وهو في شغف ليعود إلى متابعة أثر الدب قبل حلول الشتاء حيث سيكون البرد قارساً، أما سيامند فقد استكان أمام الكهف يحدق في القرية وهو يتنفس الصعداء، كان يتجول في داخل جوفي، يتحسر لرؤية حبيبته هوزان، ويحزن لتعنت والده وقلبه القاسي نحوه، إذ لم يحضر ليطمئن عليه.

بعد عدة أيام كانت الهواجس تحوم في رأس الولد الولهان، والشك يقتله، لذلك أخبر هلمت أن والده لن يتوانى عن طرد خدر من القرية بعد وقوع ولده في حب ابنته، وسيطلب إليهم أن يتركوا القرية من تلقاء أنفسهم، بينما سيامند ينام في هذا الجبل، ولا يعرف ما يدور في الأسفل، لذلك دارت في خلده خطة وقال لهلمت بغضب:

- لقد طفح الكيل. ليس أمامي سوى أن أخطو خطوتي التالية.

حملق هلمت في وجهه بتمّعن واستغراب، تابعَ الشاب كلامه بحزم:

- سوف أخطف الفتاة.

حاول هلمت جاهداً رغم جراحه أن يثني الولد عن هذا الأمر، إلا أن قدميه لم

تسمحا له باللحاق بالشاب الذي نزل هابطاً الجبل من أجل تنفيذ خطته، طلب هلمت من كاردو أن يلحق سيامند ويردعه من القيام بتلك المهمة، ولكن قلب الولد سبقه، ووصلَ إلى القرية في لمح البصر.

انتظر هلمت في الكهف وحده رجوع ابن عمه كاردو لمعرفة الخبر. كان قلقاً بشدة، فقد رق قلبه لهذا الولد الذي بقي معه لأيام يقاسمه الكهف ويساعده في السير. عند الغروب عاد كاردو وهو يتنفس بصعوبة فقد أعياه السير إلى القرية والرجوع منها، أخبر هلمت أن سيامند توجه مباشرة إلى بيت خدر ولم يلتفت إلى منزل والده، هناك لم يجد أحداً في المنزل، فقد صدق حدسه و تأكّد أن خورشيد بك قد طرد خدر وعائلته منذ أيام عدة من القرية وطلب منهم أن يرحلوا. فجن جنون سيامند وهام في أرجاء القرية، واجه والده قائلاً: هذه آخر مرة تراني فيها في حياتك، وخرج من القرية يهيم في الأرض باحثاً عن عائلة خدر ليعرف إلى أي موطن ذهبوا ويجد حبيبته هوزان.

الشتاء

الروح

في الآونة الأخيرة، رغم محاولاتهم الجادة أحسّ اهل القرية بالذنب؛ لأنهم تركوا هذا الشاب يجول في الجبال كالمجنون يبحث عن حيوان ربما لن يعثر عليه، وسوف تضيع حياته كلها من دون أن يجده، ولربما يقضي عليه ذات يوم في هذا الجبال المملوءة بالضواري. رغم إصراره، إلا أنه كان عليهم أن يتخذوا موقفاً جاداً في إنهاء هذه الرحلة، كان عليهم أن يجعلوه يثوب إلى رشده وينهي وحدته هذه، ويعود إليهم ويسكن بينهم، ويخرسوا الألسن التي تتناوله بالسوء.

توجهوا جماعات إلى الكهف الذي يتخذه مقراً له. التفوا حول النار يحاولون إقناعه أن يكف عن بحثه ويعدل عن قراره الذي اتخذه، ولن يحاسبوه أو يناقشوه وحتى لن يهتموا للعهد الذي التزم به، وإن ذلك الكائن الذي يجري خلفه ليس سوى حيوان لا يستحق أن يقضي حياته من أجله، أظهروا له اشتياقهم إليه، وطلبوا منه أن يعود إلى أحضان القرية، وألا يضيع حياته هباء من أجل انتقام لن يعيد روح جده. إلا أن هلمت ظلّ وهو يحدق في عيون أهل القرية الذي يحيطون به ثابتاً على موقفه، فهم كانوا الدافع الأساس في البداية ليستمر في بحثه الطويل هذا لينقذهم من خطرِ الدب، والآن بعدما علموا باختفاء الدب يحاولون استرضاءه، رغم أنهم كانوا يسخرون منه فيما سبق. اعتقد أن محاولتهم لإرضائه وجره إلى القرية، والقول أنهم لن يبالوا بما تعهد به لن يطول، فما هي سوى أيام وسينقلبون عليه، ويصبح أضحوكة على ألسنِتهم من جديد. لذلك رفضَ دعوتهم وتمسك بوعده وفضّل البقاء في الجبال على إنهاء رحلته هذه. استغرب الناس من عناده، واستشاطوا غضباً، وعندما نهضوا مغادرين، قالوا له:

- لن نعود إليك مرة أخرى، ولن نكون مسؤولين عما سيحدث لك. ثم غادروا الكهف من دون أن يلتفتوا إليه.

ليلتها جلس أمام النار ودار حوار طويل بيني وبينه:

- عذ إلى رشدك، وانهِ هذه الرحلة السقيمة. لن تجد ضالتك، ربما رحل، أو أنه في مكان ما بعيد.

- ماذا عن قاتل جدي، كيف لا أنتقم منه؟

- لا تنشغل بالانتقام لجدك العجوز الذي كان على مشارفِ الموت، فقد عاش حياته كما يريد.

- ماذا عن الدب الذي أبحث عنه في كل درب حتى بتّ أكرهه؟

- في ذاتك تعلم أن الدب لم يفعل ذلك سوى انتقام من البشر وما فعلوه بصغاره.

- إلا أنه وحش كاسر وقتل جدي بأشنع طريقة.

- حتى في ذلك لم يعكس سوى غريزته الحيوانية في الانتقام، إنها طبيعته التي فُطر عليها، وأنت تفعل مثله!

- وماذا عن العه الذي قطعته على نفسي؟

- هذا هو المغزى من تجوالك طوال هذه الفترة. فأنت لا يهمك الدب وما فعل، تريد أن تفي بوعدك وتقتله.

- ماذا عن كلام الناس؟

- هذا هو سبب هلاكك، أنت لا يهمك سوى كلام الناس!.

- نعم هذا هو الأساس، لا يهمني سوى موقفي الذي يجب أن أتقسك به ، وأنفذ ماتعهدت به، لن أعود إلى القرية لأصبحَ موضع سخرية الجميع.

- ولكن لن تجده، لقد رحل لقد بحثت عنه كثيراً، وعشت في الجبال، تنام في الكهوف لأيام طويلة.

- وسأبقى هكذا إلى أن أجده، أو أخسر حياتي، ولن أعود مالم أجد الدب حتى لو قضيت عمري كله هنا. وهذا أفضل من أن أصبح مثار سخرية بين الناس.

الثلج

فرشت ردائي على جبل هلكورد، جعلت سفحه أبيض ناصعاً كثوب العروس التي يعبرون بها الجبال إلى عريسه. وبعد أن تنزع الثوب تهب الحياة، كالعروس الصامتة، كان الناس من بعيد ينظرون إلى هذا الجبل المكسو بالثلج، ولا يستطيعون تسلقه لبرودته، تهب عليه الرياح من كل الجوانب، فتزداد برودة الجو وتتجمد بلوراتي أكثر وتظل غطاء للسفح إلى حين قدوم الربيع. كانت ارتفاع الثلج يصل إلى أكثر من مترين في بعض الأماكن، لم يسبق للجبل أن غطى وجهه بهذه الكمية الغزيرة من الثلج كما هو الآن.

الشخص الوحيد الذي عاندني، ولم أفلح في إخافته هو ذلك الشاب النحيف الذي يحمل بندقية، يتدثر بغطاء سميك يحمي جسده الهزّيل من البرد القارس، قدماه تنغرزان في ندف الثلج فيترك أثره على الطريق، وفي مقدور أي أحد أن يميز خطواته، ويعرف إلى أين رحل. كنت أراقبه بوجل فهو زائري الوحيد الذي يدوس على ثوبي الناصع، إلى أين يتوجه، وماهي قصته، لماذا يفضل هذا البياض الذي جمد أوصاله. عمّ يبحث؟ لم أره ينزل يوماً إلى القرية التي تنام تحت أقدام الجبل حيث التزم الناس منازلهم وسحب دخان المدافئ تنبعث من أكواخهم الغارقة في الثلج ، فما قصة هذا الشاب المسكين الذي كان يجمع بين حين وآخر قطعاً من الأشجار اليابسة، ويضرمُ فيها النار لتمنحه بعض الدفء ومن ثَم يترك المكان. كان يتطلع في الأرجاء البعيدة يبحث عن كائن ما، عن فريسة أو أي أثر في الثلج لخطوات حيوان يبحث عنه، ففي هذه البياض تستطيع أن تميز وقع أقدام أي كائن.

يوم وآخر كان يصعد إلى الجبل رجل يحمل المؤن ويقدمها إلى الشاب الذي كان يدعى هلمت، ويقول وأسنانه تصطك من البرد:

- انزل، يا هلمت، إن أهالي القرية كلهم قلقين عليك من البرد القارس، لن تتحمله، أختك خجاو لا تنام في الليل وهي تشعر بما تعيش فيه.

- أخبرها أن الصوف الذي أرسلته، يحميني من البرد، ويغمرني بالدفء عندما ألتفع به.

- أختك لا تنفك ترسلني، وأنا تعبث من الصعود والتخبط في الثلج. إننا نخاف أن نجدك يوماً، وقد تجمّدت أوصالك في هذا الثلج.

- لا تخف، لدي ما يكفيني من الأغطية، أحتمي بالكهف وأغطي نفسي جيداً، والنار تظل موقدة حتى الصباح.

- لن تجد الدب في هذا الثلج، وإن كان موجوداً، فهو محشور في كهف عميق لن تستطيع إيجاده.

- لن أنزل من الجبل، ما لم يخرج من وكره.

كل مرة يعود كاردو مخذولاً منكس الرأس، لا يقدر على إقناع هلمت أن يترك مهمته هذه إلى أن يحين الربيع.

كان هلمت يسأل كاردو عن حال امرأة تدعى نيركز تسكن في الوادي وعن وضعها، فيخبره أنها تعيش في فزع من فكرة أن تجده متجمداً ذات يوم. فيخبره هلمت:

- أخبرها أني بمقدار الثلج الذي يغطي الجبل أحبها. وهي غايتي في هذه الحياة، ومن أجلها أحافظ على حياتي.

كانت المرأة التي يقع منزلها وسط القرية، يستعر قلبها بالحب وهي تدعو ليل نهار أن يعثر هلمت على ذلك الحيوان وينهي هذا النزاع الدائر، ضعفَ جسدها ووهنت قواها، عيناها لا تبارحان النافذة، تحدقان في الجبل على أمل أن يمر ظل هلمت من أمام النافذة في أي لحظة.

في الأعالي، علم هلمت أن الوقت ملائم، فالدب الآن في سباته الشتوي محشور في وكر ما، أو في كهف أو صدع مخفي تحت شجرة، فعليه أن يبحث عنه بتأنٍ ويخرجه من سباته.

لم يتوانَ في بحثه من شجرة عملاقة إلى أخرى، يقتفي أثر اقدام حيوانات مختلفة مغروزة في الثلج عسى أن يجد بينها أثر لاقدام الدب، بحث في شقوقِ الصخور الكبيرة العميقة، فكان يحشر عوداً فيها، لعله يصطدم بالدب، حتى أنه توجه إلى قمة الجبل وبحث بين شقوقها عن مكان ضالته، لربما يجده نائماً في أي صدع أو كهف.

وفي أحد الكهوف، كان الظلام دامساً، شمّ رائحة غريبة لم يألفها من قبل، في البدء ظنّ أنها جيفة ملقاة هناك، إلا أنه ما إن توغل في داخله حتى شعر بشيء غريب غير مألوف، سمعَ صوتاً لم يسمعه من قبل، وشعر بحركة في الكهف. انتابه الوجل وتسارعت دقات قلبه، لعله هو الدب ينام في هذا الكهف، وتلك الرائحة رائحته النتنة؟ مهما يكن فإن في هذا الشق حيواناً بالتأكيد، خافَ أن يكون حيواناً مفترساً كالنمر. عليه أن يأخذ حذره ويفكر ملياً كيف يقضي عليه إن كان

هو الدب، إنها الغنيمة التي يبحث عنها.

جال أمام الكهف يفكر في طريقة لإخراج الحيوان بدلاً من أن يتوغل هو إلى الداخل المظلم ويحشر نفسه هناك، فينقض عليه الحيوان في الظلمة ولن يتمكن من رؤيته ومناورته. التفت فيما حوله فوجد بعض الأشجار الجافة البارزة في السفح، خطرت له فكرة، ذهبَ إلى تلك الاشجار وبدأ يقطع أغصانها اليابسة، كان البرد شديداً، دعا ربه أن يكون ذلك الحيوان النائم هو الدب الذي يبحث عنه، لينهي ترحاله الطويل ويستريح قلبه المهموم، وينتهي من وضعه البائس في هذه الأجواء القارسة، فيعود إلى القرية ويتزوج ثاني يوم من حبيبته نيركز التي تنتظره بفارغ الصبر.

كان الثلج الناصع يكسو المكان بطبقات سميكة، فكان يسير عليه بصعوبة لكثافته، يسقطُ بين فينة وأخرى في الثلج، وينهض من جديد، يشق طريقه ليلتقط أكبر كمية من الأغصان ويحشرها واحداً تلوى الآخر في أعماق الكهف حيث يرقد الحيوان الضاري. عاد إلى الأشجار وكدّس كومة أخرى من الحطب ونزل إلى الشق، وراح يكدسها على باب الكهف، ويحاول إدخالها إلى أعماقه. وبعد أن تأكّد أن كل شيء بات جاهزاً، أضرمَ النار في الأعواد، وتصاعدت ألسنة اللهب، ودخل دخان كثيف إلى الصدع.

تراجع إلى الخلف وأخذ يترقب خروج طريدته من ذلك الكهف، أعد بندقيته ووجه فوهتها صوب المدخل ليغتنم الفرصة، وما إن يخرج الحيوان حتى يطلق النار عليه. مرت دقائق عدة قبل أن يشتد سعير النار أكثر، وفجأة خرج من بين اللهيب حيوان يغالب النار ويطلق أصواتاً رهيبة، برز أمامه دب بني يحاول الخلاص من جمرات النار المتقدة. لم يصدق ما يراه، ازدادت دقات قلبه

وعرف أن الوقت مناسب، وأن الغنيمة أمامه، انتهزَ الفرصة، وصوّب بندقيته إلى رأس الدب بدقة، من دون أن يضيع هدفه، وأطلقَ النار على الدب الهائج، كان صوت البندقية عالياً جداً انتشر صداه في أرجاء الجبل الممتد والمكسو بالثلج. وازداد صداه في هذا الثلج الكثيف. أصابت أول طلقة رأس الدب، كان هلمت في أوج غضبه، بدأ يصرخ كالمجنون، لم يكتفِ بطلقة واحدة، بل أطلق عليه عدة رصاصات أخرى، كان صداها عالياً انتشر بشدة في أرجاء السفح، تلك الضجة كانت كافية لتجعل الثلج ينهار عن قمة الجبل ويتحرك رويداً رويداً، يتكتل ويندمج مع طبقة أخرى، ويتزحلق نحو الأسفل. وقعَ الدب وتدحرج إلى الأسفل والثلج يلتف حوله، كان ضخم الجثة، وكان الثلج يلتصق به ويلتف حوله في أثناء تدحرجه، مما صنع منه كرة هائلة، تجرف في طريقها كل ما تصادفه نحو الأسفل. استطاع هلمت أن يحشر نفسه في شق صغير، وينقذ نفسه من الانهيار الثلجي. نظر إلى الأسفل بهلع، كان الثلج يتكدس فوق بعضه بعضاً من كل حدب؛ ليكوّن كتلة ثلجية تجرف كل ما تصادفه إلى أسفل الجبل حيث ترقد القرية بهدوء. كانت كتلة الثلج تبدو كأنها جبل يتدحرج على سفح جبل، ويتوجه نحو الوادي، ما إن وصلت القرية بقوتِها المهيبة حتى هدمت سقوف المنازل المصنوعة من الخشب والطين، حطمت الاكواخ المبنية واحداً تلو الآخر، دمرت المنازل وقتلت ساكنيها الذين كانوا نياماً كلهم.

كان هلمت في قمة الجبل يرنو من الشق إلى الكارثة الكبيرة التي سببها، وأبادت قريته كلها.

الحصان الأسود

كان ضابط قوات الليفي فوق ظهري يستعد للخروج عندما دخل جندي متهالك إلى المخفر يجرُ معطفه الطويل على الثلج المتراكم، يلهث متقطع الأنفاس والبخار يخرجُ من حلقه، وهيئته تنذر بوقوع كارثة. تمتم بكلمات غير مفهومة، والضابط يحدق فيه، نزل من على ظهري، واقترب منه ليفهم ما يقول، سأله:

- ما الخطب؟

قال الرجل بصوتٍ متقطع:

- سيدي، سيدي، قرية ماران غمرها انهيار ثلجي كبير.

اتسعت عينا الضابط، وحاول أن يفهم الوضع أكثر:

- ماذا تقصد؟

- القرية دُفنت كلها تحت الانهيار الثلجي.

عندها استوعب الضابط النبأ، وقف لوهلة يفكر بما يفعله، استدار إلى الجنود الواقفين أمام غرفهم، وناداهم:

- ليستعد الجميع في الحال. أسرجوا الأحصنة، يجب أن نذهب حالاً.

ثم توقف لحظة يأمر رجاله بصوتٍ أجش:

- لاتأخذوا أسلحتكم، اجلبوا المعاول والمجارف.

انتشر الهلع بين الجنود وهم يلبون أمر قائدهم. صعدَ من جديد، أمسك اللجام في يده ولكزني لأتوجه خارجاً. لم يمر الكثير من الوقت حتى لحق بنا الجنود الآخرون فوق الأحصنة. عدونا كالريح نحو القرية وحوافرنا تطيّر الثلج خلفنا. كانت الأرض ناصعة البياض. لم أرَ في حياتي ثلجاً بهذه الكثافة، كان يمتد على امتداد النظر وقد غطى الوديان والسفوح والجبال كلها. ولم يعكر صفو هذا البياض سوى ملابس الجنود البنية.

كانت القرية تقع في الطرف الآخر من الجبل وتبعد عنا أميالاً عدة. كان الضابط يلكز خاصرتي بقدميه لأعدو بسرعة، على أمل أن ينقذ أي شخص تحت الركام في القرية المنكوبة. كان شيرزاد الضابط معروفاً بشهامتِه في إعانة الفقراء والوقوف في وجهِ الظالمين والمعتدين، لا يقبل الغلط من أي شخص ويحاسبه بشدة، كان المخفر يضجُ بالرجال الذين قبض عليهم لأبسط الجرائم، يزجهم في السجن ليكون درساً لهم.

امتلكني الكثير من الرجال والفرسان، واحد منهم كان رئيس العصابة سردار الذي كان يجعلني أعدو كالبرق حينما يرى مسافراً يسلك ذلك الوادي، كان سوادي يبعث الرعب في قلب خصمه، وأنا أحط عليهم مع باقي العصابة التي هاجمتها قوات الإنكليز، وقد قتل صاحبي في معركة حامية ودامية. ليجرني الضابط من الجبل ويجعلني ملكاً تابعاً لسرية أنكليزية.

أسعدني الأمر كثيراً فهو يُعنى بي ويوفر لي العلف أكثر، لم أعد أتسلق الجبال وأسافر عبر الوديان والسفوح من قرية إلى قرية من دون انقطاع وسردار يطارد أو يهرب من الجنود.

عندما وصلنا إلى مشارف القرية رأينا الكارثة، مصيبة كبيرة حلت، كأن قطعة من الجبل الجليدي قد انهارت وغطت الوادي واندثرت القرية تحتها.

صهلت الخيول وهم يشاهدون ماحدث، وتوقف الرجال في أماكنهم فزعاً وهم يحملقون في القرية التي اختفت بكاملِها وكأن عقولهم لا تستوعب ما يرونه. هل هناك أحياء تحت هذه الأنقاض، عليهم أن يزيحوا الثلج ويبحثون عن أي شخص لعله مازال يتنفس تحت ركام القرية التي انجرفت مع الثلج إلى الوادي.

صاح الضابط مخاطباً جنوده:

- هلموا، ربما مازال هناك بعض الأحياء تحت الأنقاض.

كان الثلج يغطي القرية كلها، وقد تهدمت سطوح المنازل وانهارت الجدران المصنوعة من الحجر الجيري، وبرزت فروع الأشجار المتكسرة من خلال الثلج السميك. وكانت تُسمع من هنا وهناك أصوات أنين، وآهات تصدر من كلِ مكان.

عندما نزلنا إلى جرف الوادي وجدنا أيادي تظهر من الثلج تطلب النجدة، نزل الجنود عن الأحصنة وبدأوا بجرف الثلج، وإنقاذ ما تبقى من الأحياء في القرية.

لفت انتباهي، وأدهشني أنه وسط كثافة تلك الثلج وجدنا دباً بنياً، نصف جسده مطمور تحت الثلج، وفي الأعلى وجدنا شاباً يجلس قبالة القرية فاغراً فاه من هولِ ما واقع أمامه.

انتهى